مركز الفكر الاستراتيجي للدراسات
Strategic Fiker Center for Studies
أوراق سياسية

صورة المجتمع السعودي
في المتخيل الثقافي الغربي

سهام الدريسي

مركز الفكـــر الاستراتيجي للدراسات

Strategic Fiker Center for Studies

مقدمة

تتبنى سرديات بناء صورة (الآخر العربي) ثقافياً، في الغالب، بوصفها جزءاً من مشروع صراع بين مقولات العلمانية والديني، وهو ما يزيد من مستويات التوجس المتبادل والفوضى والانكفاء على السمات الأيديولوجية والدينية للهوية. وربما يكون انفجار النزعة المعادية للعرب في الحقبة (ما بعد) الكولونيالية[1]– التي شهدت غمرة انبعاث تمثلاتها السلبية والعنصرية في حقبة ما بعد 11 سبتمبر– انعكاساً فاضحاً لتواصل الثنائيات الضدية لهذا الصراع، وهي تعبِّر عن ذهنية الإقصاء والتوجس لدى الرأي العام الغربي لتشريع مقولات حيوية الوحدة الوطنية من جهة، وتفوّق الهوية الثقافية (العلمانية) من جهة أخرى.

وهذه التمثلات السلبية، في العمق، تتأسس على ميكانزمات خطاب الخوف التي يعيد إنشاءها في الغالب السياسيون والإعلاميون، وأيضاً حالياً مواقع التواصل الاجتماعي؛ للتعبئة وحشد الرأي العام الغربي في وقت الأزمات الوطنية والانتخابات، وأيضاً بعد كلّ عملية دعس أو تفجير إرهابية.

اهتم أدب الرحلات الغربي، على امتداد القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بالمملكة العربية السعودية، وقد اختَزلت مختلف الكتابات أسس بناء الدولة في القوة الدينية للفكر الوهابي (الشيخ محمد بن عبد الوهاب) في المخيال الغربي. وقد عرف اهتمامها بالمجتمع نوعاً من المراوحة بين الاستشراق الكلاسيكي والدراسات الإثنوغرافية[2] لعادات البدو من قبل الرحالة الأوروبيين. وفي العقود الأخيرة ظهرت بعض الأدبيات الغربية المتخصصة في دراسة المملكة العربية السعودية.

وفقاً لما سبق ذكره، وبغض النظر عن المرجعيات العنصرية أو الموضوعية لدراسات الاستشراق عن المجتمع السعودي، فإن ما سيجري التركيز عليه في بعض مناحي الورقة لا يعكس بالضرورة واقعه وقيمه بقدر ما يُظهر مقاييس تقييم (الآخر) في المتخيل الثقافي الغربي.

تهتم الدراسة بالأساس بالتمثلات الغربية للمملكة السعودية؛ بتفكيك مراوحتها بين الخلفية الاستشراقية والجانب النفعي (سياسة المصالح) في بنية الذهنيات الغربية بسبب ثقلها الجيو–سياسي. وستكون هذه الورقة البحثية في ثلاثة محاور كبرى، أولها الثقل الجيو–سياسي للمملكة السعودية، وثانيها التقابل بين الإسلام والغرب وتأثيره في الذهنيات الغربية، أما ثالثها فهو التركيز على التمثلات الغربية للسعودية بتحليل عينات من الخطاب الثقافي الأمريكي والألماني والإسباني.

أهمية البحث ومنهجيته

تستمد المملكة العربية السعودية إشعاعها وانغراسها في المخيال الغربي من مكانتها بوجود الأماكن المقدسة للدين الإسلامي (مكة/ المدينة المنورة) فيها، إلى جانب شهرتها الدولية بفضل الإيرادات الكبرى لمواردها النفطية في بلورة مميزات صورتها المعاصرة لدى الرأي العام الغربي، ذي الهوية الحضارية المتمايزة عن نظيرتها العربية والسعودية على

[1] الكولونيالية وما بعد الكولونيالية: الاستعمارية أو الكولونيالية (بالإنجليزية: Colonialism) تطلق على السيطرة والتأثير الذي تفرضه الدولة المستعمِرة على الكيان التابع لها، والنظام أو السياسة التي تنهجها للحفاظ على السيطرة، وتأتي مرادفاً للإمبريالية. ويعتقد منظّرو الدّراسات (مابعد الكولونيالية) أنّ علاقات الهيمنة بين الشرق والغرب قد أنتجتْ خطاب الآخر الكولونيالي، كما كانت هي ذاتها نتاجاً لهذا الخطاب، ذلك أنّ الشّرق الذي كان يعرف من خلال المجازات والاستعارات اللغوية قد أعاد إنتاج خطاب الهيمنة ذاته، بقبوله لهذا الخطاب وتمثّله له ليغدو شرطاً طبيعيّاً لما يسمّى بـ(العالم المستعمَر)، لا كحصيلةٍ للقوى (الجيوسياسيّة) التي أنتجته لتبرير سيطرتها على العالم واقتصاده وثقافته. https://goo.gl/K9DsuX

[2] Ethnography: وصف الأعراق البشرية أو الناسية: وصف أحوال الناس. وهي مأخوذة من الكلمة اليونانية(Ethnos) وتعني العرق والجنس، وهي فرع من فروع الأنثروبولوجيا(Anthropology) ؛ من أنثروبوس (Anthropos) وهو الإنسان. والإثنوغرافيا عمل ميداني تطبيقي، يصف الشعوب والسلالات، ويقوم على رصد ثقافاتها، وسلوكياتها الاجتماعية، كما أنه وصف شامل لحياة الإنسان أو المظاهر الخارجية للثقافة التي يراها الملاحظ (السائح، العالم، الأنثروبولوجي) فيسجلها. https://goo.gl/9e73Sk

وجه التدقيق.

خصوصية العلاقة الجدلية في إطار التأثير الديني المالي في كلٍّ الأمة الإسلامية قدَّم للسعودية تموقعاً نوعيّاً إقليمياً ودولياً يقترن إلى حد كبير في الأذهان بالتوافق الضمنيّ بين الفكر الوهابي والنظام السياسي للدولة، وأيضاً النموذج الحيّ للمجتمع المتديّن. زادت هذه العلاقة الجدلية بين الدين الإسلامي والقوة الاقتصادية والثقل الاستراتيجي من التصوّرات التلفيقية والأفكار النمطية حول مجتمع (محافظ) في الذهنية الغربية عند كلّ محاولة لرسم صورة للسعودية.

وإذا كان واقع الالتزام الديني الذي تسعى أغلب الكتابات الغربية إلى الترويج له بصفته مبرراً مشروعاً لتصوير السعودية بشكل (فانتازي)؛ على أنه بلد مقاطع للحداثة، وتتسبب الهيمنة الأيديولوجية (للإسلام) في غموضه الثقافي والانغلاق المجتمعي، فإن الأدبيات السياسية والثقافية الغربية تجعل تصوُّراتها بخصوص العرب عامة في بوتقة الصراع والتقابل الكليّ بينهما؛ بحجة أزمتي الهُويّة وغياب العقلانية التي تعيشها هذه المجتمعات كإفراز للمستويات العالية من التديّن ولعدم استطاعتها التأقلم مع المنظومة الديمقراطية، التي صارت قناعة لدى الكثيرين إلى حدود اندلاع ثورات الربيع العربي 2011[3].

في الغالب تُصاغ تمثلات الجمهور الغربي بتوظيفٍ ممنهج لخطاب (الصدام الحتمي مع العالم الإسلامي)، وتعزيزٍ للصور النمطيّة المتكررة التي كانت امتداداً لمقولات الاستشراق والاستعمار القديمة حول المجتمعات المسلمة؛ محاولة تثبيت حقيقة دونيتها وسلبيتها. وقد شهدت التمثلات الغربية الخاصة بالمجتمع السعودي إعادة إنتاج التصورات الاستشراقية الزائفة، كما عرفت كتابات أو خطاباً يتسم بالموضوعية مع التركيز الكبير على الطفرة الاقتصادية، ولذلك من المهم أن نفهم الرمزيات والصور المكونة للذهنيات الغربية إزاء النموذج السعودي، بالمراوحة بين منهجية (تحليل الخطاب النقدي) و(تحليل المحتوى)؛ لأنهما من أكثر الآليات البحثية رواجاً واستعمالاً في العلوم السياسية، وصار من المهم الالتجاء لتحليل الألفاظ واللغة المستعملة (الاستعارة/ الحجج..) وشكل الخطاب، من أجل فهم الأحداث السياسية وطرق توظيفها، بالإضافة إلى خلفياتها ومقاصدها الثقافية أو الأيديولوجية.

يبيِّن تحليل الخطاب عمق المرجعيات المؤسسة للرأي العام، ويساعد على فهم التمثّلات الثقافية السائدةِ حول هذا خصوصيةُ النموذج السعودي وفهم مقاصدها، كما يساعد على التركيز على مفهوم إعادة صياغة المعرفة (المعتقدات، والأفكار النمطية، والرؤى العنصرية..) داخل النص بما يتناسب مع موازين القوى والسلطة التي تستمد مشروعيتها وديمومتها من مخزون ثقافي واجتماعي معيّن.

خصوصية المملكة العربية السعودية

تؤدي المملكة العربية السعودية دوراً حيويّاً وحاسماً في المنطقة الخليجية وعلى المستوى الإقليمي، إلى جانب ثقلها الاستراتيجي في صناعة القرار دولياً، الذي أصبح يظهر بشكل أكثر وضوحاً ما بعد 2011؛ حيث عرفت سياستها الخارجية تغيرات نوعيّة ومتسارعة أثرت في صورتها وأشكال تمثّلها لدى الرأي العام الغربي.

تتمظهر السعودية كدولة قوية حليفة لأغلب القوى الغربية الدولية، التي تراهن بدورها على منظومة حكمها المستقرة، خاصة بعد انخراطها الكليِّ في سياسات التصادم والمحاربة للأجندات الخفية والعلنية للتمدُّد الإيراني، والكيانات الدينية المتشددة. وقد تحققت توجهات السياسة السعودية بشكل عمليٍّ من خلال المجابهة المباشرة والتصعيد ضد خصومها

[3] May Darwich. The Ontological (In) security of Similarity: Wahhabism versus Islamism in Saudi Foreign Policy, Institute of Middle East Studies, GIGA German Institute of Global and Area Studies, December 2014.

(قطر/ إيران)، أو التهديدات الأمنية (الحوثيين..) مع تسلُّم الملك الحالي سلمان بن عبد العزيز للحكم[4].

تأسيساً على ذلك يمكن القول إن المملكة العربية السعودية أصبحت تضطلع لدى شركائها الغربيين بوظيفة أمنية؛ بوصفها رادعاً لخطر الحوثيين باليمن، وكابحاً للامتداد الإيراني بالمنطقة العربية، إلى جانب وظيفة أيديولوجية تشكّل من خلالها رؤية دينية مغايرة لبقية التيارات المتشددة (تنظيم الدولة/..).

شكّلت (عاصفة الحزم) وإحداث (التحالف الإسلامي ضد الإرهاب) تحوُّلات حقيقية في عمليَّة التقارب والثقة المتبادلة مع القوى الغربية، حيث اكتسبت السعودية المزيد من المشروعية داخل المجتمع الدولي بدحضها كلَّ الاتهامات الموجهة إليها- خاصة من طرف بعض وسائل الإعلام الغربي- بتشجيعها وتمويلها لأيديولوجيا عقائدية متشددة[5].

وعند تتبُّع ودراسة السلوك الخارجي السعودي من زاوية ردود الفعل الغربية، يظهر جليّاً أن مسارات التغيُّر المتسارع في ظلِّ مبادرات وليِّ العهد (محمد بن سلمان) قد زادت من مستويات التقارب والتعاون الاقتصادي والسياسي بين الطرفين، كما عززت وأنتجت تقارباً أيديولوجياً أو حضارياً مقاوماً لتغلغل الفكر الإرهابي في المنطقة العربية والدولية؛ بسبب إعلان صناع القرار السعوديين تجديد الفكر الديني والتأسيس لمرحلة انفتاح ليبرالي[6].

غير أنه لا بد من الإشارة هنا إلى أن الأوضاع السائدة، وشدة الصراع الدولي في المنطقة، يدفع بالقوى الغربية (الأمريكية/ الأوروبية) إلى الحليف السعودي لتحديد موازين القوى دولياً، لكون هذه الأخيرة المصدر الأكبر للبترول عالمياً، وصاحبة استثمارات ضخمة في دولهم، والراعية الأولى لأغلب مبادرات التهدئة بالمنطقة العربية.

المفاهيم الأساسية في البحث

- **الإسلاموفوبيا:** يلخص هذا المفهوم ذو الطابع الأيديولوجي طبيعة التخيُّل الغربي للعالم الإسلامي، المتلازم مع نزعة جماعية لشيطنة (الآخر) وكراهيته؛ على أساس الخوف والتوجس من مرجعيته الدينية. وقد روَّجت الخطابات السياسية والأعمال الفنية ووسائل الإعلام، للصور النمطية السلبية حول العرب والمسلمين، التي ترسخت بدورها في الثقافة الشعبية للمتلقي الشعبيّ بفعل تراكمات التاريخ الاستعماري، وأدبيات الاستشراق الكلاسيكي، وأجندات سياسية لاستدامة الصراع الأيديولوجي بين المجتمعات الغربية والإسلامية.
- **التمثلات النمطية:** هي جملة التصورات الثقافية الشعبية لدى المتلقي الغربي حول العرب والمسلمين، التي تتسم في الغالب بالنمطية، والمبالغة في الإساءة، وتحريف الواقع بسبب المقاربات السردية والسينمائية المعتمدة في صناعة الرأي العام من طرف النخب الغربية. التمثلات المبسطة والمسيئة للعالم الإسلامي يجري إنتاجها وإعادة صياغتها في المتخيّل الغربي عن قصد أو عفوياً؛ خدمة للمصالح الاقتصادية والسياسية للقوى الغربية المتنفذة دولياً، وتزداد الحاجة إليها في سياقات الصراع، مثل ضربات 11 سبتمبر، وغزو العراق، والحرب على أفغانستان، والحرب على الإرهاب.. إلخ.
- **المتخيّل الثقافي:** يعد امتداداً للرأي العام، والثقافة الشعبية، بما تستبطنه من أساطير وأفكار مبسطة، وسرديات الوعي الجمعيّ، وفي الغالب تتخذ النخب السياسية- بقصد أو عفوياً- الوصاية على صناعة وإنتاج الصور المألوفة والرائجة حول الشعوب الأخرى، والأديان والثقافات المغايرة بين العامة. وقد اتخذ الرحالة الغربيون، والكتّاب، والسينمائيون، ورجال الدولة، على عاتقهم تدوين وترويج مغامراتهم، والصور النمطية الزائفة (أو المبالغ فيها) حول مجتمعات العالم

[4] Peter Salisbury, It's Qatar V Saudi Arabia. But the West can't afford to pick a side, Middle East and North Africa Opinion, The Guardian, 6 June 2017. https://goo.gl/8RWGYQ

[5] Al Arabiya English, US annual report: Saudi key member in fight against terrorism, 20 July 2017. https://goo.gl/AmJ4Ke

[6] John R.Bradley, Is Mohammad bin Salman a friend to the West ?, The Spectator Journal, 7 March 2018. https://goo.gl/sGm7KA

العربي لدى المتلقي الغربي، التي فكك أجنداتها ومنطلقاتها المفكر إدوارد سعيد في كتابه (الاستشراق)، إذ فكك آليات الدعاية والمغالطات التي يؤثر بها الاستشراق في الرأي العام الغربي، تلك الصور النمطية أشيعت بوصفها القاعدة الثقافية وأيديولوجية متعارفاً عليها غايتها تبرير الوضع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي المتردي بالعالم الثالث (العربي هنا)، باعتباره أمراً طبيعياً، ونتاجاً حتميّاً لجهل و(بربرية) المجتمع، مقارنة بالتحضر وحداثة المجتمعات الغربية.

المحور الأول: الخلفية التاريخية للدور السعودي إقليمياً ودولياً

لا بد عند دراسة أدبيات التأريخ لصورة المملكة العربية السعودية في الأدبيات الغربية، من معرفة تمثلات الغرب الأوروبي أو الأمريكي لمنطقة الجزيرة العربية أو منطقة الخليج عموماً؛ وللمجتمعات العربية الإسلامية بوجه خاص، ومن المهم القول إن قلّة الدراسات أو الكتابات المخصصة فقط للسعودية، أو اختزالها غالباً في المجال الاقتصادي، لا يهمّش الدور التاريخي للدولة أو المجتمع السعودي في إعادة تركيب ملامح العلاقة بين المنطقة العربية الإسلامية والجانب الغربي منذ بداية القرن العشرين[7]. لذلك فإن صورة المملكة العربية السعودية لدى الرأي العام الغربي تتأثر ضرورة بالترسيمة الذهنية للنموذج العربي عموماً، ولكن إعادة النظر في ملامح الصورة داخل السرديات الغربية يُظهر مضامين جديدة وشبه مختلفة إلى (الآخر) السعودي.

وبنظرة استقرائية للحضور السعودي في الصيرورة الثقافية للفكر الغربي يتبين أن السعي لاستيعاب الخصوصيات الاجتماعية والديناميات التاريخية للدولة السعودية قد بدأت في الأوساط الاستشراقية بمحاولة محتشمة للتوثيق التاريخي بدأت مع المؤرخ الفرنسي (منجين) في فصل بعنوان: (لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب)، في كتابه (تاريخ مصر في عهد محمد علي). كما ورد في كتاب المؤرخ (أليكسي فاسيلييف) المترجم إلى العربية (تاريخ العربية السعودية)[8].

ويرى الكاتب أنّ توثيق الحضور المؤثر للشخصية الدينية (محمد بن عبد الوهاب) في تاريخ بلاد الحجاز، وأنماط تشكل توازنات القوى في ظلّ حكم ملوك آل سعود، قد اتسم بالموضوعية ورسم واقعيّ غير مشحون بتشويهات العقلانية التنويرية الاستشراقية في تقديمه لمعلومات حول «طابع العلاقات الإقطاعية والقبلية في الجزيرة، والتجارة والصنائع في نجد، وأشكال الشريعة عند القبائل البدوية، وتنظيم السلطة وجهاز جباية الضرائب والنظام القضائي، والقوات في الدولة السعودية الأولى»[9].

وقد ارتبط الاهتمام الغربي بالسعودية بتأريخ وإعادة تشكيل مقولات المذهب الوهابي، ونفوذ دعاته داخل سياقات مختلفة؛ حرص فيها بعض الرحالة والمؤرخين الأوروبيين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على التواصل المباشر مع «البدو والحضر على حد سواء»[10]. كما ورد في كتابات الرحالة البريطاني (يوركهاردت)، والقنصل الفرنسي (كورانسيز) في كتابه (تاريخ الوهابيين)، الذي يتسم بالتشويه شبه المقصود، وكذلك الكاتب الإنجليزي (دوتي)؛ إلى جانب العديد من المهتمين الآخرين من كتّاب أو دبلوماسيين تحدثوا عن مدينة الرياض ونجد ومكة في كتاباتهم. وطوّرت الأدبيات الغربية ونوّعت زوايا نظرها للمجتمع السعودي اجتماعياً وإثنوغرافياً وثقافياً في النصف الأول من القرن العشرين مع الباحثين (فيلبي وديكسون) (السلك الدبلوماسي البريطاني)[11]. وفي ذات الحقبة ظهرت شخصية (لورانس) كفاعل سياسي

---

7 Robert Leiken, Europe's Angry Muslims: The Revolt of The Second Generation, Oxford University Press, 2012.

8 أليكسي فاسيلييف، تاريخ العربية السعودية: من القرن الثامن عشر وحتى نهاية القرن العشرين، ترجمة شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة الرابعة، 2013.

9 أليكسي فاسيلييف، تاريخ العربية السعودية: من القرن الثامن عشر وحتى نهاية القرن العشرين، ترجمة شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة الرابعة، 2013، ص 11.

10 أليكسي فاسيلييف، المرجع السابق، ص 14.

11 أليكسي فاسيلييف، المرجع السابق، ص 17.

ودبلوماسي مقرّب من شريف مكة خلال الثورة العربية الكبرى ضد الحكم العثماني (1917)، الذي نشر العديد من المؤلفات ذات الومضات الموجزة حول منطقة الجزيرة العربية لا ترتقي لشروط الدراسات الأكاديمية والموضوعية التي عرفت بها كتابات الباحثة البريطانية (هيرترودا بيل) أو الألماني (راسون)، والعديد من المؤرخين الآخرين.

وفي هذا الإطار، من المهم الإشارة إلى أن مؤسسة أرامكو السعودية قد تناولت في كثير من دراساتها المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية وتأثيراتها في النمط المعيشي لسكان الحضر وقبائل البدو، مثل كتاب (جزيرة ابن سعود) لكلٍّ من (ليبكتشر وستينيكه) (موظفَان أمريكيان)، إلى جانب دراسة ميدانية للباحثة اليابانية (موتوكو كاتاكورا)، والعديد من المؤلفات الأخرى التي أشرفت عليها إدارة السفارة الأمريكية[12].

يتضح مما سبق ذكره والتعرض له بإيجاز أن الاحتكاك الغربي بالمجتمع السعودي، والاهتمام البحثي بدراسة طبائعه، وإبراز الأبعاد الثقافية والسياسية والتاريخية للهوية؛ مع توظيف مفاهيم الحداثة والأصالة ظهرت فعلياً في حقبة الطفرة النفطية (الستينيات..). وتناولت أغلب المؤلفات الغربية (الروسية/ الأمريكية/ البريطانية..) مسائل الواقع السعودي مثل (بيركز وسنكلير)، أو لاحقاً (هوبدي وكليدار ولونغ) في مؤلف جماعي تحت عنوان (المملكة العربية السعودية)، تم من خلالها الإضاءة على النظم المعرفية والفقهية للمنظومة التشريعية، والسلطة، والخصوصيات الثقافية للمجتمع، والقواعد المحددة للسلوكات السياسية[13].

وطيلة العقود التالية تعددت المؤلفات والمقالات بخلفيات معرفية متقاطعة، بعضها يروج للقطيعة الإبستمولوجية بين الموروث الإسلامي والعقلانية (التنويرية) العربية، مثل دراسات للمستشرق الفرنسي (لياوست)، وأخرى تشدد على الطابع الأيديولوجي لحركة المجتمع السعودي، مثل كتاب (الإسلام في السياسة الخارجية) للمؤلف (مورتيمر)، أو كتاب (العربية السعودية: النفط والإسلام والسياسة) للباحثة الروسية (فالكوفا).. إلخ.

ظهرت العديد من الكتابات الأخرى- لا يمكن استعراضها جميعاً في هذه الدراسة- التي أسست في الغالب للذهنية الغربية حول المجتمع السعودي والخليجي عامة؛ بمنطق يراوح بين أيديولوجيا تعزز النزعة الفوقية الغربية، ورؤية بحثية تركز في الغالب على المسائل النفطية أو تهدف لتقليص الهوة لدى المتلقي الغربي وتصحيح الكثير من المغالطات. وما يستخلص من المسح التاريخي لبعض أهم الكتابات حول المملكة العربية السعودية في صيرورة الفكر الغربي؛ القيمة المركزية لهذه الدولة العربية لدى الرأي العام الغربي عامة.

المحور الثاني: العلاقات العربية (الإسلامية) بالمجتمعات الغربية

تنوعت الأعمال الأكاديمية والأدبية خلال العقود الأخيرة مع ازدياد الاهتمام بدراسة العلاقة بين العالم العربي ونظيره الغربي من وجهات نظر مختلفة، حيث سُلط الضوء على تفكيك خلفيات الخطاب الغربي حول المجتمعات المسلمة وأنظمتها السياسية. وسبق أن ذكرنا أن مجتمعات منطقة الشرق الأوسط بالأخص، والعالم الإسلامي عموماً، كلها تقريباً تحظى بمحاولة النخب الأكاديمية والإعلامية أو السياسية الغربية ترسيخ القوالب النمطية حولها؛ لتزايد أهميتها الاقتصادية والجيوسياسية.

وتستقطب الدراسات الغربية عموماً اهتماماً أكاديمياً واسعاً عند تعرضها بالتحليل للخصوصيات الإنثروبولوجية أو الثقافية أو الاجتماعية لعالم (الشرق عامة)، وقد انتقدَ المفكر (إدوارد سعيد)، في كتابه (الاستشراق) (1978)، أغلب

[12] أليكسي فاسيلييف، المرجع السابق، ص 21.
[13] أليكسي فاسيلييف، المرجع السابق.

مقارباتها، وكشف عن آليات التشويه الممنهج، وتوظيف أدبياتها لحساب الأجندات الاستعمارية الغربية.

وتتمثل مقاربة إدوارد سعيد، المتأثرة أساساً بالمدرسة الماركسية (أنطونيو غرامشي)، والمدرسة الفلسفية الفرنسية (ميشال فوكو)؛ في تفكيك البنى الهيكلية والأيديولوجية للتواطؤ بين النمط الغربي لإنتاج المعرفة حول الشرق والأجندات السياسية لمنظومة السلطة في الدول الغربية. ويبدو أن المتخيل الغربي ما زال متأثراً- إلى حد ما- بالمقاربة الفوقية المتغلغلة في الخطاب السياسي والثقافي-الإعلامي لنخبته حول مجتمعات العالم العربي.

في سياق دراسة المتخيل الغربي بخصوص المملكة العربية السعودية يلاحظ أن العالم الغربي عامة يحرص على تمثلها كآخر مختلف عن النموذج الليبرالي المتعارف عليه؛ ليس فقط لتحجيم تفوقها الاقتصادي، وخصوصية النمط الاجتماعي، ومرجعياتها الثقافية؛ بل أيضاً لتضخيم الهوية الغربية، والتشريع لأجندات سيطرتها ووصايتها على المنطقة، كما أوضح المفكر إدوارد سعيد.

1- صناعة الرأي العام في الدول الغربية

يبدو جلياً أن المخزون الاستشراقي للثقافة الغربية لم يستطع تجاوز الدوائر المغلقة لأجنداته (الاستعمارية)، ومقولاته الفوقية عند تناوله بالدراسة للنموذج السعودي، حيث يؤكد تقرير ذو طابع سياسي-تاريخي نشرته البعثة الثقافية السعودية في الولايات المتحدة الأمريكية بعنوان (السعودية العربية: مملكة في حالة تحول) (Saudi Arabia: aKingdom in Transition)، لمؤلفه عبد العزيز السويل، أن أغلب التمثلات الغربية قد تعسفت واختزلت المملكة في خليط من الأفكار والتعميمات المطبوعة بنفس فانتازي متأثر بقصص ألف ليلة وليلة[14].

ومن المفارقات الأخرى- حسب نفس التقرير- أن القراءات الغربية للواقع السعودي لم تستطع أو تغافلت عن الحراك الطبيعي والتنوع الثقافي المميز لمجتمعها، واقتصرت على الفهم السطحي للعمق الروحاني لتسجن نفسها في وصف طقوس الحج. ومع هذا فالنقطة الأساسية لدى أغلب الأدبيات الغربية حول السعودية هي اهتمامها بالذهنية البدوية بصفتها منطلقاً أساسياً لتناول التأثير العميق للأيديولوجيا الدينية وإنتاجها لعلاقات التوتر أو النفور بين الحداثة والتراث لدى هذا المجتمع، ما يعدونه منافياً للمرجعيات العقلية للفكر الغربي.

ويتمثل الباحثان (بول آرتس وكارولين رولانتس) هذه الإشكالية على أساس منطلقات من مثل أنه: «لسنوات طويلة كانت المملكة العربية السعودية بنظر الغرب بلد شيوخ النفط ذوي الثراء الفاحش، لدرجة أن صنابير حمامهم كانت مصنوعة من الذهب الخالص. وكان هؤلاء الشيوخ، الذين يعيشون على عائدات الذهب الأسود، يظهرون وكأنهم خارجون لتوهم من (مغامرات تان تان)، جرى تقديمهم بصورة من لا يفعلون شيئاً سوى إقامة الحفلات الماجنة على الشواطئ الفرنسية، وشراء نصف أسهم...، وامتطاء جمالهم، والسير في مفاوز صحارى لا تعرف حدوداً بحثاً عن آبار نفط جديدة»[15].

غير أنه عند تركيز الاهتمام على السرديات الأمريكية، بوصفها الأكثر تأثيراً في الذهنيات الغربية؛ لما تمتلكه من آليات الهيمنة الثقافية، يلاحظ أن صورة العرب تختزل بين التنميط والتشويه (المقصود) في الأدب، وسينما هوليوود، والإعلام، والدوائر السياسية والبحثية، وصولاً إلى المتخيل الشعبي الأمريكي خاصة والغربي عامة؛ ولكن من المهم القول إن التمثلات الخاصة بالعرب لا تمثل استثناء بل امتداداً لعقلية تستسهل إقصاء الآخر على أساس البشرة أو العرق أو الدين أو الأيديولوجيات لإثبات فوقية الهوية الأمريكية (البيضاء) على المتخيل الثقافي الذي يُعبَّأ بصور إعلامية وتصورات تلفيقية

[14] Antonella Cassia, Saudi Arabia in the German-Speaking Imagination: Identity, Space, and Representation, Phd Dissertation, The University of Arizona, 2016. P 11.

[15] بول آرتس وكارولين رولانتس، العربية السعودية مملكة في مواجهة الخطر، ترجمة ابتسام الخضرا، مركز دراسات الوحدة العربية، حزيران 2016، ص 11.

(القذارة/ الكسل/ الإرهاب/ العنف/ التهديد الأمني/ البربرية..) تخدم أجندات (البيض) المتنفذين ضد الأقليات بالولايات المتحدة الأمريكية (الأمريكيون الأفارقة/ الأمريكيون الأصليون/ الصينيون/ اللاتينيون/ المسلمون..)[16].

لذلك تظهر دوماً في الذهنية والسياسة الأمريكية الحاجة الملحة باستمرار إلى صناعة العدو (الحضاري/ الثقافي) لتسويغ السياسات العنصرية والتمييزية المشرعة لأسطورة (الاستثناء الأمريكي)، التي تفضي مفاهيمها وشروط تحققها إلى استحضار مقولات الاستشراق الكلاسيكي[17].

ومنذ اللحظة الأولى لاندلاع الثورة الإيرانية (1979)، ثم إعلان نهاية الحرب الباردة، بدأت (الماكينة) الإعلامية والسياسية الأمريكية (ثم الغربية) استنساخ استراتيجيات التشويه المنهج، وإعادة إنتاج مقولات الاستشراق والاستعمار، ضد ما تعده إدارة البيت الأبيض العدو الأيديولوجي، والتهديد الأمني الأول لاستقرارها، بتسميات مختلفة؛ أبرزها (الدول المارقة)، أو (محور الشر)، أو التيارات الإسلامية، أو القاعدة.. إلخ[18].

يستبطن الصراع مع (العالم الإسلامي) أو (الإسلاموية) تناقضات ومفارقات كبرى داخل السياسة الأمريكية الغربية، التي تشرع لممارسات الاستبداد الحديث بمقولات تحقيق التنمية الشاملة، وترسيخ الديمقراطية، ومحاربة التخلف الحضاري في الدول العربية. كما يتأسس التوجه العام الغربي بقيادة المنظومة الأمريكية نحو العالم الإسلامي من خلال تشريع حالة العداء أو التقابل الحتمي مع (الآخر) المسلم؛ القائمة على تضخيم منسوبِ التوجس من العالم الإسلامي بصور تعميمية متحجرة حول الخلفيات الإنثروبولوجية والثقافية داخل النص الديني والمجتمع لاستعمال العنف، وتبني خطاب الكراهية ضد بقية الأديان[19]. لذلك يعبَّأ الرأي العام الغربي بكتابات (استشراقية) تجندت لها مراكز الأبحاث، والصحف، والسياسيون، والمثقفون، واليمين المتطرف، واليساريون، ورجال الدين؛ لتوظيف واقع الأنظمة الاستبدادية وحالة الانقسامات العربية، أو تقارير استخباراتية أمريكية-بريطانية (حرب الخليج/ أسلحة الدمار الشامل/ قضية لوكربي....)، لتعيد صياغة وعي الجمهور الغربي بشيطنة العالم العربي، وتأكيد قطيعته التامة ثقافياً مع قيم الحداثة والديمقراطية بمقولات تهدف إلى خلق صدام حقيقي داخل هذه المجتمعات ذاتها مثل: (الإسلام الحقيقي)، (الإسلام المتشدد)، (المسلمون السيئون/ المسلمون الصالحون)، (الإسلام الحداثي).. إلخ.

2- صراع/مقولات التقابل بين الإسلام والغرب

سعت الإدارة الأمريكية منذ أحداث 11سبتمبر 2001 الإرهابية، وتحت شعارات (الحرب المقدسة) ضد ما يسمى (الإرهاب الإسلامي)، لتوسيع ودعم وجودها العسكري والدبلوماسي والثقافي في الدول الإسلامية، إلى جانب التجييش المنهج للإعلام الأمريكي والدولي (القوة الناعمة) ضد منظومة دينية واجتماعية (مسلمة) تتبنى ثقافة العنف الدموي والإرهاب لا كطريقة تواصل مع (الآخر) الغربي المختلف فقط؛ بل تستمد شرعيتها من النص القرآني والتراث الإسلامي (سرديات الحروب الصليبية/ الفتوحات..)، وفق ما يروجون للرأي العام الغربي[20].

ويرى المفكر (برنارد لويس) أن العالم الإسلامي في حالة صراع دائم مع الحضارة الغربية؛ بسبب عدم قدرته على تجاوز التقهقر الشامل الذي يعايشه تقريباً منذ القرن الثامن عشر، تحت وطأة صعود الإمبراطوريات الأوروبية والروسية.

16 Helene Dieck,The Influence of Public Opinion on Post-Cold War U.S. Military Interventions, Palgrave Macmillan,2015.

17 Michelle Aguayo, Representation of Muslim Bodies in the Kingdom: Deconstructing Discourses in Hollywood, Global Media Journal (Canadian Edition), V 2, Issue 2, PP 41-56, 2009.

18 Abdulkader H. Sinno, Muslims in Western Politics, Indiana University Press, 2009.

19 Matthew J. Morgan,The Impact of 9/11 on Religion and Philosophy: The Day that Changed Everything?, Palgrave Macmillan, 2009.

20 Helene Dieck, The Influence of Public Opinion on Post-Cold War U.S. Military Interventions, Palgrave Macmillan, 2015.

لقد كانت الضربات الإرهابية في الحادي عشر من سبتمبر لحظة حاسمة في التصور الأيديولوجي للآخر المسلم لدى الرأي العام الغربي، وقد شرعنت لإعادة إنتاج مقاربات صراع الحضارات في بنية السلوك الاجتماعي والثقافي، والتأسيس الإعلامي والسياسي لخطاب الكراهية والتوجس من المسلمين على أساس الهوية الدينية. ويبدو أنها أحد محركات دينامية الصراع بين الطرفين بالتركيز المنهج وذي العمق الأيديولوجي على صور التعارض، خاصة بين الغرب والإسلام، الذي صار مفهوماً وأيقونة للعنف والكراهية في الفكر الغربي الحديث[21]. ولذلك فإن محاولات الدول الغربية بحملات تصحيح أو تغيير (الإسلام) التي بدأت مع الاستشراق ثم ما بعد الاستعمار، وحالياً الحرب على الإرهاب، قد باءت بالفشل، وأنتجت فقط الإسلاموفوبيا والصراع الديني، بالإضافة إلى ظهور الإمبريالية الجديدة وتزايد الأعمال الإرهابية.

ومجمل المتغيرات التي أشير إليها زادت من الجدل حول الفروق الحضارية بين الغرب والمسلمين من منطلق الإسلاموفوبيا التي تدور كل الاتهامات الموجهة للسعودية حولها؛ بحجة تورط بعض قيادات تنظيم القاعدة ذوي الأصول السعودية في تفجيرات الحادي عشر من سبتمبر (مثل أسامة بن لادن)[22].

3- معضلة الإرهاب وقضايا النمط المجتمعي والدولة

رُسمت الحدود الراهنة لعلاقة الخوف المتبادل بين الغرب والإسلام تحت مظلة مقولات الإسلاموفوبيا وخطاب (الحرب على الإرهاب)؛ بعد أن أعلن الرئيس الأمريكي السابق أن الحرب على طالبان أو بقية الدول المارقة ليس فقط من أجل تقويض إرهاب الجماعات المسلحة، بل هي مهمة إنسانية تسعى في جانب منها لإنقاذ المرأة المسلمة من قهر واضطهاد تعيشه بحجة الدين وتقاليد المجتمع الذكوري. ولذلك فقد وظف البناء اللغوي والبلاغي داخل الخطاب الغربي (الحرب على الإرهاب) بجميع أنواعه لتحقيق وظيفته التأثيرية والإقناعية لإظهار أن التدخل العسكري في ظاهره رد على العمليات الإرهابية، ولكن في حقيقته (تحرير) للمجتمع العربي (العراق..) أو المسلم (أفغانستان) من التخلف، وإنقاذ المرأة من اضطهاد الإسلام وقهر المتشددين[23].

وأعاد هذا الخطاب أيضاً بعض الصور النمطية والنسق الدلالي للمنظومة الذكورية (الإسلامية) التي تصور المرأة على الدوام- في أدبيات الاستشراق الكلاسيكي[24]، أو لدى بعض كتابات ما بعد الاستشراق- على أنها عنصر مُضَحٍّ وصانع للحياة، في حين يتم تمثل الرجل بصفته سالباً لها.

بالنسبة إلى جزء كبير من الخطاب الغربي تتمظهر علاقة التناقض الثقافي والأيديولوجي بين الإسلام والغرب بتمثلات الهوية الأنثوية في المملكة العربية السعودية، كنموذج للدراسة في هذه الورقة، وكل الدول الإسلامية تقريباً، على هامش ما يعرف بخطاب الحرب على الإرهاب، الذي جدد الصور النمطية السلبية للمرأة والمجتمع الإسلامي الموروثة عن الخطاب الاستشراقي الاستعماري.

انصب اهتمام الدراسات الغربية، التي عُنيت بظاهرة الإرهاب الدولي، على تفسير ظاهرة التطرف الديني، ومناقشة أصول العنف في الدين، والثقافة الإسلامية، بالإضافة إلى مدى عدم توافق الأنظمة والمجتمعات العربية مع قيم الليبرالية، ومن ثم يجدر بالذكر أن خطاب (الحرب على الإرهاب) لم يكن مجرد تعبيرات عفوية، بل كان بناء منطقياً لديه أهداف محددة تخدم الأجندات الغربية في منطقة الشرق الأوسط، لأنه يشرع لجملة من الممارسات السياسية، ويطبع العديد من

---

21 Rachel Bronson, Thicker Than Oil: America's Uneasy Partnership with Saudi Arabia, Oxford University, 2006.

22 J.E. Peterson, Saudi Arabia and the Illusion of Security, The International Institute for Strategic Studies, Routledge 2002.

23 Richard Jackson, Writing the War on Terrorism: Language, Politics and Counter-terrorism, Manchester University Press,2005.

24 فاضل الربيعي، ما بعد الاستشراق: الغزو الأمريكي للعراق وعودة الكولونياليات البيضاء، مركز دراسات الوحدة العربية، فبراير/شباط 2007.

المعتقدات أو الصور النمطية حول نساء الشرق الأوسط والإسلام على أنها أفكار بديهية وحقيقية من المستحيل تغييرها.

وليس من الصعب استنتاج المفارقات العديدة داخل (الخطاب) أو (النص) الغربي في طريقة دراسته لإشكالية العلاقة بين المرأة والحرب على الإرهاب؛ من خلال استنكار الذكورية المفرطة للثقافة الإسلامية، وفي المقابل تبرير المقاصد الأيديولوجية للتدخل العسكري من خلال الترويج لفكرة الفوقية الأوروبية وعقلانية (الرجل الأبيض) الذي يستبطن هيمنة المنطق الاستشراقي الاستعماري المغتصب لحرية المرأة المسلمة وكرامتها، ولا يرى في معاناتها سوى الحجاب أو النقاب أو الختان.. إلخ[25]، ومن ثم يمكن اعتبار خطابات (الحرب على الإرهاب) والاستشراق الجندري بمنزلة الحجة المشرعة لشكل من أشكال العنف الإبستمولوجي الذي تمارسه المنظومة الأمريكية (الإعلام/ السياسة/ الجيش..)، من خلال العنف المادي والمنهج، المغلف بدعاية إنقاذ المرأة وتحقيق الأمن والسلام في العالم الإسلامي عموماً، خصوصاً أن الغرب يتموضع داخل هذا الخطاب لإنقاذ المرأة المسلمة من ملامح هويتها المظلمة التي تجعلها متأخرة عن مثيلتها الأوروبية أو الأمريكية، ولا سيما أن ثنائيات الحضارة/البربرية والحداثة/الرجعية ترسخ أفضلية الجانب الغربي المتنور وتميزه على الجانب الإسلامي المتخبط في سواد التخلف.

واعتبر العديد من الدارسين والمختصين في العلاقات الدولية إبراز هذه الصورة النمطية شديدة السلبية عن المرأة في مناطق التوتر لا يعدو أن يكون مجرد إعادة تمثل لمقولات وتصورات الاستشراق ذات الطابع الاستعماري[26]. ويتميز هذا الخطاب عموماً بميل كبير إلى تجريم الشريعة الإسلامية، وتحميلها مسؤولية حالة التخلف والإحباط[27] وانتشار الإرهاب، بالإضافة إلى ترسيخ الأنظمة السلطوية التي ما فتئت تنتهك حقوق المرأة، وتشرع التمييز ضدها باسم الدين.

أعادت (الحرب على الإرهاب) صياغة مقولات الإسلاموفوبيا والأفكار النمطية السلبية عن المجتمعات العربية وتحولت إلى قوة ضغط على السياسات والتدخل العسكري، بشكل يؤكد الاستغلال المتجدد لمسألة المرأة لإظهار حتمية التحضر الغربي والتخلف العربي. ومن المحتمل أن تضع هذه المقاربة مجدداً المرأة المسلمة في دائرة التلاعب بين أطراف محلية وعالمية، تزج بها بقوة نحو حداثة عالمية وأخرى ترى عزة الإسلام وصمود الهوية العربية يترافق إلزاماً مع ديمومة المنظومة الذكورية.

ولا شك في أن مثل هذه المواقف والخلفيات التحليلية ينبغي الانتباه إليها وأخذها بالحسبان؛ لسعيها المتواصل والملحّ للتعميم والتنميط والازدراء العلني أو الخفي للإسلام والمسلمين.

4- ثورات الربيع العربي وديناميات التعاون بين الدول الغربية والسعودية والخليج العربي (تحديداً)

يمكن القول إن المنطقة العربية عايشت ما بعد 2011 فراغاً استراتيجياً بعد الانقسامات والتوترات الناتجة عن حالة الفوضى أو سياسات إعادة بناء الدولة المصاحبة لثورات الربيع العربي (مصر، اليمن، سوريا)، وقد تبنت المملكة العربية السعودية مواقف دولية مناهضة للتمدد الإيراني، ومقاومة لصعود التيارات الإسلامية.

وفي المسار الذي تحولت فيه السعودية إلى قوة متنفذة إقليمياً (عسكرياً/ دبلوماسياً)، ازداد حضورها الإعلامي والسياسي لدى الرأي العام الغربي، وترسخت العلاقة بين المملكة العربية السعودية وحلفائها القدامى، خاصة الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا، بعد وصول الرئيس الأمريكي ترامب إلى الحكم، ونشأت صور جديدة أكثر انفتاحاً

---

25 Maryam Khalid, Gender, Orientalism, and the 'War on Terror': Representation, Discourse, and Intervention in Global Politics, Routledge, 2017.

26 فاضل الربيعي، ما بعد الاستشراق: الغزو الأمريكي للعراق وعودة الكولونياليات البيضاء، مركز دراسات الوحدة العربية، فبراير/شباط 2007.

27 إدوارد سعيد، الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة محمد عناني، دار البنجوين العالمية، 2008.

بالتوازي مع زيارة ترامب (مايو/أيار 2017)؛ حيث أظهرت استطلاعات رأي قامت بها صحيفة (the Weekly Economist) أن العينة المستهدفة ترى السعودية (صديقاً) و(شريكاً أساسياً)، بنسبة 36%. ثم بـ44% خلال الزيارة[28]. ورسخت هذه الزيارة الدبلوماسية للرياض استعدادها للتعاون الكامل مع الجانب الأمريكي، خاصة أنها كشفت عن صفقة أسلحة أمريكية بقيمة 350 مليار دولار لتوحيد الدول العربية السنية ضد إيران.

5- الاختلاف الأيديولوجي مع التيارات الإسلامية

يجدر بالذكر أن حالة الاستثناء في مقاربة صناع القرار السعودي وتمسكهم العملي بالبعد الديني بوصفه أحد مرتكزات شرعية النظام السياسي، تتمثل في رفض التماهي أو الاصطفاف إلى جانب المنظورات الدينية المغايرة، وتجلى ذلك في الخيارات الدبلوماسية والثقافية؛ كالموقف من التجربة الإيرانية للخميني (الثورة الإيرانية 1997)، أو نماذج حكم الأحزاب الإسلامية (ما بعد 2011 بمصر، تونس..). ولم يعزز التأثير العميق للمعطى الديني في السلوك السياسي للدولة السعودية حضور التيارات الإسلامية داخل دوائر صناعة القرار، رغم تأثير فكرها في البنى الاجتماعية، بل في الغالب رُفض صراحة صعودها ووصولها إلى السلطة في دول مثل مصر أو تونس ما بعد 2011.

وفي ذات السياق، تتصدى السعودية بالتعاون مع المجتمع الدولي لخطر الجماعات الإسلامية المسلحة وفق منهج يصاغ بإعادة تشكيل الخصوصية (الإسلامية) المعتدلة للدولة.

اشتغلت السلطة السعودية على إيجاد صيغة مخالفة لسرديات التيارات الإسلامية من جهة وباقي التيارات الدينية المسلحة من جهة أخرى؛ في مسار واعٍ لإعادة تشكيل التمثيل الذاتي، خاصة ما بعد 2001، لا بدواعي الأمن الأنطولوجي فقط، بل تحطيماً للصورة النمطية حول التماثل الهوياتي بينها وبين الفكر الوهابي لدى الإعلام الغربي؛ حيث ظلت الهوية السياسية للنظام السعودي على نحو متزايد ملتصقة بالبعد الديني (الإسلامي) لدى الذهنية الغربية[29].

لقد انخرطت السعودية في استراتيجيات تقويض تمثلات التنميط ومغالطات التخييل الغربي بخلق نوع من التمايز الهوياتي ضمن أجندات كاملة لدبلوماسيتها العامة، بمعنى أن الترويج لصورة الدولة بصفتها معارضة للتيارات الإسلامية ليس منسلخاً عن صيرورة التغيرات السياسية والمراجعات الدينية التي تشهدها المملكة[30].

وعلى الرغم من أن الهالة الدينية لمنظومة الحكم في السعودية تقدم في الغالب تمثيلات مليئة بالمغالطات لدى الرأي العام الغربي؛ غير المتمكن معرفياً من تمييز الفروقات بين الأيديولوجيات والمذاهب الإسلامية، فإنه في المستوى الدبلوماسي عملت الدولة على تجاوز أو القطع الضمني مع خطاب التيارات السنية[31] وخياراتها، والعكوف على ترسيخ وتجديد خطاب المذهب الوهابي السلفي.

6- المجتمع السعودي والانفتاح على الفضاء الافتراضي

يمكننا أن نشير إلى أن الانفتاح المتنامي للسعوديين على الفضاءات الإلكترونية قد أحدث نوعاً من التغيير العميق في صورة المجتمع السعودي كانعكاس طبيعي لمسارات التحديث والعولمة.

الواقع أن المجتمع السعودي من أكثر المجتمعات العربية استعمالاً للإنترنت، وبالأخص لمواقع التواصل الاجتماعي،

---

28 BEN FLANAGAN, Trump visit boosts US public opinion about Saudi Arabia, Arab News, 27 May 2017. https://goo.gl/tydhqf

29 Josie Ensor, Muslim Leaders call for Sunni and Shia to unite against Islamist terror after Prophet's Mosque bombing in Saudi Arabia, 5 July 2016. https://goo.gl/BhA2NJ

30 Kamel Daoud, If Saudi Arabia Reforms, What Happens to Islamists Elsewhere?, The New York Times, 16 Novemeber 2017. https://goo.gl/fJm4d7

31 ترجمة وتحرير شادي خليفة، (واشنطن بوست): أزمة قطر.. الخلاف حول (الدين) وليس إيران، الخليج الجديد، 29 يونيو/حزيران 2017. https://goo.gl/5JDter

وهو ما سمح بتغيير هذه الصور النمطية المتكررة، وصياغة مواقف ووعي مغاير لدى الرأي العام الغربي، ومن ثم أصبحت المنصات الافتراضية مجالاً مفتوحاً وميسراً لبعض فئات المجتمع السعودي (خصوصاً الشباب/ النساء/ نشطاء المجتمع المدني) للتطرق إلى موضوعات سياسية أو دينية أو اجتماعية، وابتكار تصورات بنوع غير مسبوق من الانفتاح والمصداقية خارج نطاقات سيطرة الدولة[32].

فتحت النقاشات في شبكات التواصل الاجتماعي (الفضاء العام الافتراضي) الفرصة للمجتمع السعودي لتفنيد التصورات المبسطة (السطحية) والأفكار المتخيلة والمشوهة لدى الرأي العام الأجنبي، من خلال إعادة إنتاج (عفوية) للصورة المترسخة في المخيال الغربي. وقد أظهر هذا الحراك المجتمعي (الافتراضي) المساهمات المهمة للمجتمع السعودي في إحداث التغيير الإيجابي العميق، ومراجعة التحديات المطروحة على أساس التوازن بين المرجعية الدينية الإسلامية والمقاربة الإصلاحية (الليبرالية)[33].

7- المجتمع السعودي وإشكالية اضطهاد المرأة في المتخيل الثقافي

تبرر التمثلات الغربية مصداقية أفكارها النمطية حول العالم الإسلامي وحتمية التناقض الحضاري الموجود بين الطرفين على أساس السلوكيات الاجتماعية والتعاليم الدينية التي تشرع للتمييز بين الجنسين، مع نزعة لاضطهاد المرأة. ولم تكن المملكة العربية السعودية بمنأى عن هذه التمثلات الثقافية، بل إنها تعد في المخيلة الغربية من أكثر المجتمعات رفضاً للمقولات الحداثية الخاصة بالمشاركة النسوية، وافتقارها إلى الرغبة في التخلي عن القيود المجتمعية والدينية الصارمة المعرقلة لحرية المرأة. وتتابع الدوائر الإعلامية والأكاديمية، بالإضافة إلى المراكز الحقوقية الغربية، باهتمام كبير، التحولات المجتمعية والسياسية، حيث تعدها الفرصة الكبرى للقطع التدريجي مع حالة الانغلاق التي تعيشها المرأة السعودية[34].

بطبيعة الحال من الضرورة الإشارة إلى أن تزايد المصالح الاقتصادية والسياسية للدول الغربية (خاصة الولايات المتحدة الأمريكية) في منطقة الشرق الأوسط، قد أثر في الترويج للنمط المجتمعي المحافظ في المملكة العربية السعودية؛ بصفته نموذجاً منغلقاً و(عدوانياً) ضد المرأة، لذا كانت التقارير المتواترة للجنود الأمريكيين والصحفيين الميدانيين (بعد حرب الخليج الثانية) بالمنطقة، ترسم السلوكيات المجتمعية بمنطلقات استشراقية وأهداف دعائية (مبيعات..) بإعادة إنتاج شبه ممنهج للصور النمطية الكلاسيكية؛ بغية توجيه انتباه وسائل الإعلام الغربية إلى السعودية على أنها دولة إسلامية (مقاطعة) للحداثة. وهكذا، تعددت الأعمال الأدبية والسينمائية المستبطنة للصور النمطية المألوفة عن الشروط الحياتية في المملكة العربية السعودية، وتلفيق وقائع حول العزل القسري للمرأة، وتعرضها لكل أنواع القمع والتمييز (العنصري)، نتاجاً لنزعة التشدد الديني، كما ورد في روايات مثل (الأميرة: القصة الحقيقية للحياة خلف الحجاب بالسعودية) (1992)، أو بنات الأميرة سلطانة (1994).

يبدو منطقياً هذا الحضور القوي للمجتمع السعودي في الكتابات والتمثيلات السردية أو الإعلامية لما بعد الاستشراق للنخبة الغربية التي عكست أجندات لتشويه صورة الإسلام بالترويج التشويهي/التلفيقي للانتهاكات ضد المرأة (وتعميمها) في دولة تمثل المركز الروحي للدين الإسلامي. وتتطرق أغلب هذه الأعمال الفنية إلى البنى الاجتماعية والثقافية للمجتمع

---

32 Al-Jaber, A.Social Networking, Social Movements, and Saudi Arabia: A Review of Literature. ARPN Journal of Science and Technology, 3(2), pp. 161-168, 2013.

33 Al-Rasheed, A History of Saudi Arabia. Secondd Edition ed. UK: Cambridge University Press. 2010.

34 Line Stange Ramsdal, Must I drive? The discrimination debate in Saudi Arabia, Center for Mellemostudier, Syddansk Universitet, May 2013. https://goo.gl/H7Fnkw

السعودي، بخلق نوع من الدهشة لدى الرأي العام الغربي واجتذابه بصور متخيلة (محرفة أو مجانبة للواقع) حول الزواج القسري، وتعدد الزوجات، والتعنيف، وانتشار الأمية، وغياب المرأة عن الفضاءات العامة.

هذه المقاربة الاستشراقية لم تتلاشَ كلياً في المخيال الغربي، وقد بدأ الحراك الثقافي والاجتماعي الذي تقوده العديد من القيادات الشبابية والنسوية في السعودية، على مواقع التواصل الاجتماعي، أو ميدانياً، وكذلك من خلال الانفتاح المتبادل بين النخبة السعودية والعالم الغربي (دراسة بالخارج/ استثمار/ شراكات..) بدحض هذه الأفكار النمطية والتلفيقية المألوفة لدى المتلقي الغربي[35].

ولأن هذه المقولات الاستشراقية حول المرأة السعودية (أو المسلمة عامة) تمثل في الغالب مصدراً للاستثراء السريع ولفت انتباه الدوائر الإعلامية، السياسية والأكاديمية، فقد أصبحت موضة رائجة بين النخب الغربية لترسيخ الإسلاموفوبيا، وفوقية (الرجل الأبيض)، وأجندات الإمبريالية الجديدة في الثقافة الشعبية للمتلقي الغربي، ولذلك تحرص وسائل الإعلام الغربية والدوائر الحقوقية على الترويج لمساعيها لإنقاذ النساء السعوديات الطالبات للجوء بالدول الغربية هرباً من ظلم المنظومة الذكورية والتعسف التشريعي على الحريات الشخصية.

يمكن الوقوف على التمثيل الغربي لموضوع معاناة وخوف بعض النساء السعوديات من العيش أو العودة إلى المملكة كفرصة لانتقاد المعتقدات الدينية وللروابط الاجتماعية بتداول كبير لقصص (الضحايا) مثلما جاء في أحد تقارير (CNN): «أنا امرأة تعيش روحي الميتة في جسمي الحي، وأتمنى ألا يحصل هذا لأختي الصغيرة»، أو: «أنا سجينة وتهمتي الوحيدة أنني امرأة سعودية»، أو: «العبودية تأتي في أشكال ووضعيات مختلفة: وولاية الأمر إحداها»[36]. وقد تعاطفت بعض النخب النسوية الغربية مع الحملات السعودية على وسوم من مثل: (سعوديات___نطلب___إسقاط___الولاية) أو (معا لانهاء___ولاية___الرجل على المرأة) بمواقع التواصل الاجتماعي، حيث تولت إطلاق حملات على موقع تويتر مثل: (Stop enslaving Saudi Women) أو (I am My own Guardian[37]). ولكن من المهم الإشارة إلى أن التحولات السياسية والإصلاحات التشريعية بالمملكة (خاصة منذ 2016) بخصوص إلغاء ولاية الأمر ومنح المرأة حق قيادة السيارة قد ساهم في الإضاءة على العديد من الجوانب الإيجابية للمرأة السعودية، مثل ظهور تقارير تتحدث عن انخراطها الفعال في المجال الاقتصادي (40% من قيمة الثروات الخاصة تملكها النساء بالمملكة، و52% من أصحاب الشهادات العليا نساء)[38].

المحور الثالث: التمثلات الغربية للمجتمع السعودي

1- صورة السعودية لدى الرأي العام الأمريكي

يكتسب الجانب الاقتصادي والسياسي للمملكة العربية السعودية أهمية كبرى لدى النخبة المتنفذة والرأي العام الأمريكي، ويسهم الأمريكيون المغتربون (العمال الأجانب في الشركات النفطية/ المستشفيات/ المقاولات/ المهندسون..) في تشكيل الصور المتخيلة حول هذه الدولة المضيفة؛ «يبدو مجمع أرامكو السعودية (واسمه الرسمي شركة النفط العربية السعودية)، من أوجه عدة، أشبه بمنعزل غربي في الشرق الأوسط، رغم وجوده ضمن أكثر الدول محافظة في المنطقة

35 Madawi Al-Rasheed, A most masculine state: gender, politics and religion in Saudi Arabia, Camridge University Press, 2013.

36 Donie O'Sullivan, The Women tweeting for their freedom in Saudi Arabia, CNN, 16 September 2016. https://goo.gl/U3BbUh

37 كيندل بيانكي، (تويتر) والحملة السعودية للحفاظ على ولاية الرجال على النساء، منتدى فكرة، معهد واشنطن. https://goo.gl/dkRA8X

38 فهد الحوشاني، المرأة السعودية وتقرير جديد، صحيفة الجزيرة. https://goo.gl/NG55Yb

بأكملها»[39].

هذا الحضور المكثف للجالية الأمريكية بالسعودية لا يعني قدرتها على تشكيل تمثلات موضوعية وعميقة؛ نتيجة عدم احتكاكها المباشر والمتواصل مع المجتمع السعودي، واقتصارها على العيش في أماكن خاصة بالأجانب مثل (أرامكو). وقد ظهر الافتقار إلى المعرفة العميقة بمميزات الشخصية السعودية في المتخيل الشعبي الأمريكي، بشكل جلي، بعد الضربات الإرهابية في 11 سبتمبر، التي تورط فيها 15 شخصاً من أصول سعودية من مجموع 19 من مرتكبي الهجوم. ولكن من المؤكد أن التقارب السياسي والتعاون العسكري والاقتصادي يجعل السعودية من أكثر الدول الشرق أوسطية متابعة من طرف الدبلوماسيين، والإعلام، والمؤسسات البحثية، والخبراء الاقتصاديين، والمحللين السياسيين في الولايات المتحدة الأمريكية.

زادت سمة الدهشة الشديدة لدى الرأي العام الأمريكي إثر تفجيرات 11 سبتمبر من هستيريا الكراهية للمسلمين، وإعادة إنتاج ممنهج للقطيعة الإبستمولوجية بين الغرب والعالم العربي[40]، وهكذا فإن المنظومة الاجتماعية والدينية للمملكة العربية السعودية مثلت موضوعاً نموذجياً لانتقاد العالم الإسلامي واستحضار المخزون الاستشراقي الاستعماري بتصورات زائفة تتلاعب بالمتخيل الشعبي الأمريكي، وتبرر غزو العراق وأفغانستان بمقولات الحرب على الإرهاب، وفرض الديمقراطية، وإرساء (الإسلام المعتدل)[41].

وقد تبنت إدارة الرئيس الأمريكي (جورج بوش) بالأخص مواقف ومقاربات تجاه الإسلام والعرب ترسخ النزعة الاستشراقية (العنصرية) إلى درجة التأسيس لتصور عام حول التلازم بين الإسلام والتطرف من ناحية، ومواطني الشرق الأوسط والإرهاب من جهة أخرى، لدى الرأي العام الغربي وبين صانعي السياسات الأمريكيين[42].

تأريخية المتخيل الجمعي الأمريكي بخصوص السعودية

تراجعت نسبياً الهيمنة الاستعمارية المباشرة لأوروبا على دول المنطقة العربية في مطلع القرن العشرين، بعد الثورة العربية الكبرى 1916 ضد الحكم العثماني ببلاد الحجاز، وظهور الحركات التحررية، وهو ما تسبب في تغييرات واضحة في التركيبات الرمزية للاستشراق الكلاسيكي. ولم تعوض الولايات المتحدة الأمريكية الحضور الاستعماري البريطاني فقط، بل تشبعت بمقولاته العنصرية وتصوراته المشحونة بالازدراء لشعوب المنطقة؛ إذ تأثرت الثقافة الشعبية الأمريكية، والأوساط الأكاديمية، والنخب السياسية والإعلامية، بالموروث الاستشراقي المتجانس تماماً مع أسطورة/ فكرة الاستثناء الأمريكي التي ترسخت عالمياً بعد انتصاراتها في الحرب العالمية الثانية وخلال الحرب الباردة.

ويجدر بالذكر أن علاقات التوتر بين العرب والغرب، التي تتمظهر ثقافياً في ترسخ للفوقية الغربية وتثبيت الدونية العربية، زادت حدتها مع إعلان منظمة الأمم المتحدة في 1947 قيام دولة إسرائيل، حيث تحصل اليهود على ما يقارب 57% من الأراضي الفلسطينية، وهو ما أسس لحقبة طويلة ومتواصلة من الصراع. وقد حافظ (الاستشراق الأمريكي) و(الاستشراق الجديد) على ذات القوالب النمطية الشائعة حول (العدو الجديد) العرب والمسلمين، مثل (التخلف/ الهوس الجنسي/ العنف/ الأشرار..)، بل وُظفت هذه الصور القديمة المتخيلة إعلامياً وسينمائياً، وأيضاً للدعاية السياسية.

39 بول آرتس وكارولين رولانتس، مصدر سابق، ص57.

40 فاضل الربيعي، مرجع سابق.

41 Esposito. John L,Sonn Tamara & Voll John O 'Democracy after the Arab Spring'. Oxford University Press, 2016.

42 Maryam Khalid, Gender, Orientalism, and the 'War on Terror': Representation, Discourse, and Intervention in Global Politics, Routledge, 2017.

ويؤكد الباحث (شاهين جاك) (Shaheen Jack) بعد أن تفحص ما يقارب 1000 فيلم «أن نمطاً واحداً ثابتاً يتمثل في التجريد من الإنسانية» في تمثلات السينما الأمريكية للعرب، الذي يتم تنميط صوره في الثقافة الشعبية الأمريكية منذ بداية القرن العشرين. على سبيل المثال، صحيفة (TIME) الأمريكية لطالما شوهت صورة المملكة لدى الرأي العام بصور مشحونة بالسخرية والتشويه المتعمد في 1957، حيث رسخت انغلاق العقلية الفوقية الأنجلوساكسونية بمقولات مثل أن الإمبراطورية الإسلامية للنبي محمد لم تترك لهم سوى الآثار (اللغة العربية/ الإسلام)، حيث بقيت السعودية منسية لعدة قرون، ويعيش أهلها في الخيام السوداء إلى حدود إنشاء شركة أرامكو النفطية. وتستحضر الصحيفة المخزون الاستشراقي في المقولة التالية: "في جميع أنحاء السعودية لم يكن يوجد مصنع واحد، أو هاتف واحد أو حتى طريق معبد".

بدأت العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية بين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة الأمريكية فعلياً مع اللقاء الشهير بين الملك السعودي والرئيس الأمريكي (فرانكلين روزفلت)، في 14 فبراير/شباط 1945، لتتواصل العلاقات الاستراتيجية مع كل الإدارات الأمريكية المتوالية باحترام شديد للعادات والتقاليد الخاصة بالمجتمع المحلي، ودون تدخل في الشأن الداخلي السعودي. وتتنوع نواحي علاقات التعاون بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية: أبرزها العلاقات الاقتصادية (النفط..) والأمنية، التي تعززت خلال الحرب الباردة، وزادت قوتها لاحتواء التوسع الشيعي أعقاب الثورة الإيرانية، وأخيراً دعم الثقل الاستراتيجي للمملكة العربية السعودية في المنطقة[43].

وبناء على ذلك، ازداد اهتمام الرأي العام الأمريكي بالمملكة العربية السعودية في بداية السبعينيات (1973)، بعد أن اتخذت قرار حظر تصدير النفط إلى الدول الغربية، في ردة فعل غاضبة على العدوان الإسرائيلي ومساندةٍ للقضية الفلسطينية، وأصبحت في تلك الفترة تتصدر أخبارها الصحف ووسائل الإعلام الغربية بالتوازي مع انتقادات للنظام السعودي، واتهامات صريحة بدعمه لتنظيمات مسلحة تهدد أمن إسرائيل.

وبعد الضربات الإرهابية في 11 سبتمبر، ظهرت النوازع السلطوية لدى الوسائل الإعلامية ولوبيات داخل الكونغرس الأمريكي لتشويه صورة المملكة العربية السعودية لدى جزء من الرأي العام الأمريكي؛ باتهامات متكررة باضطلاع الفكر الوهابي في نشر الفكر التكفيري عالمياً، وتشجيعه للمسلمين على استهداف الدول الغربية ومصالحها.

انطلاقاً من هذا المنظور، صعد مجلس الشيوخ الأمريكي حالة التوتر بين الغرب والعالم العربي بتقرير: (بعد سنتين من أحداث 11 سبتمبر: حفظ أمن أمريكا) (2004) يدعي فكرة مفادها أن القوة الأيديولوجية للمذهب الوهابي ترسخ الخلفيات الدينية للعنف ضد المجتمعات الغربية، وتشرع لتجنيد المقاتلين، وانتمائهم للتنظيمات الإرهابية، وهو ما يعيق علاقات التعاون التقليدية بين السعودية والولايات المتحدة الأمريكية. ومن الواضح أن هذا التقرير دفع الرأي العام الأمريكي والغربي بشكل حاسم؛ بسبب خلخلته لعلاقات التعاون والشراكة المتبادلة، وتحويلها إلى هجوم بكل ضراوة على الدين الإسلامي[44]، ومن ثم أصبحت هذه التمثلات السلبية والضبابية حول السعودية والعالم الإسلامي، خاصة النظام العراقي، من أكثر المواضيع متابعة في وسائل الإعلام الأمريكية، ورفعاً لنسب المشاهدة، خاصة أنها تتلاعب بالرأي العام والمتخيل الشعبي بصور زائفة حول الشر المتجذر في المسلمين، وخطر سلاح الدمار الشامل على الأمن الأمريكي والإسرائيلي، وخطر الإسلام على الهوية القومية، وانتهاكات حقوق الإنسان، وترف شيوخ البترول، والبداوة، واضطهاد المرأة.. إلخ.

وكان للرأي العام الأمريكي خاصة والغربي عامة استعداد كامل لتقبل التصورات النمطية الدونية حول الآخر (العربي/

[43] فاضل الربيعي، مرجع سابق.

[44] Rachel Bronson, Thicker Than Oil: America's Uneasy Partnership with Saudi Arabia, Oxford University, 2006.

المسلم) وتصديقها؛ بفعل الضغط الإعلامي والتلاعب السينمائي بتعميم الأفكار النمطية والرؤى العنصرية (المسلم بالضرورة إرهابي/ متسخ/ شهواني/ متخلف/ المرأة مضطهدة..)، خاصة مع تغلغل هذه النظرة الدونية في المناهج المدرسية والجامعية. ومن هذه الزاوية لا غرابة أن تصبح مقولات صدام الحضارات المحرك الأساسي لاشتعال جبهات النزاع والتصادم على أساس الاختلافات الثقافية والأيديولوجية.

وقد ظهرت هذه التصورات التلفيقية ومحاولات تعميمها على الشعب السعودي مع قضية أحد مواطنيها بالولايات المتحدة الأمريكية (حميدان التركي)، الذي اتهم في 2006 بالاعتداء الجنسي والتعنيف الجسدي المتواصل لسنوات لخادمة إندونيسية، وافتكاكه لجواز سفرها، وقد تم تغطية جملة هذه الاتهامات التي أنكرها (حميدان التركي)، أو برر بعضها، بالخصوصية الثقافية والاجتماعية للمجتمع السعودي (عدم السماح لها بالخروج من المنزل/ الاختلاط..)، في وسائل الإعلام الأمريكية بتركيز كبير على مزاعم تغلغل العنصرية واستعباد النساء في السلوكيات الاجتماعية للمواطن السعودي[45].

2- المتخيل الجمعي الألماني حول السعودية

تعد كتابات الاستشراق الألماني حول المنطقة العربية امتداداً صرفاً للمنظومة الكولونيالية الغربية، كما يؤكد ذلك المفكر إدوارد سعيد في تفكيكه لديناميات العلاقة بين المركز والهوامش حسب التصنيفات الغربية[46]. وقد أضاف الاستشراق الألماني طابع الموضوعية والعلمية عند تعمقه في السمات الروحية والفكرية للثقافة العربية؛ لأن المستشرقين الألمان «على الأغلب لم تسيطر عليهم مآرب سياسية أو غايات التبشير طوال مسيرتهم في دراسة الشرق، ولم يتصفوا بروح عدائية ضد الإسلام والحضارة الإسلامية العربية، بل اتصفوا بحماسهم وحبهم للغة العربية..»[47].

لذلك فإن التركيز بشكل عام على صورة السعودية لدى الرأي العام (الأوروبي) من منظور المتخيل الثقافي الألماني، الذي استطاع الباحثون الأوائل تجاوز فوقية ومركزية الاستشراق الغربي ضمنياً، وراوحت الكتابات المعاصرة بين عملية وصف روحانيات طقوس الحج من طرف الألمان المعتنقين للدين الإسلامي وأخرى خاصة بوصف التفاعل مع الحياة اليومية للسعوديين تقريباً فقط بمدينتي الرياض وجدة حيث يستقر الأغلبية للعمل في الشركات العالمية.

بدأ إنتاج تركيبة التباس التمثل الفانتازي للشرق برواسب الانحياز الحتمي لتمايز الثقافة الأوروبية (البشرة البيضاء..) للمتلقي الغربي مع المكتشف بوركهاردت(Johann Ludwig Burckhardt) في بداية القرن التاسع عشر، إذ وصف مدينة جدة ومكة المكرمة مستنبطاً حكايات وأحداثاً من الحياة الاجتماعية آنذاك، تتكيف في بعض الأحيان مع خلفيات المتخيل الاستشراقي المشحون بالصور النمطية حول (التوحش البدوي)، و(الصحراء المخيفة)، و(العربي البدائي)، وخاصة بتلميحات صريحة وعنصرية ترسخ دونية العنصر العربي (البشرة السوداء/ متسخ/ العراء/ التوحش..) مقارنة بالأنا الأوروبي (البشرة البيضاء/ العفاف/ التحضر..)[48].

وفي الوقت نفسه يكتب هذا المستشرق في مقامات أخرى عن حكمة ومهارات ونبل البدو بإعجاب، بسرد دقيق لحياتهم اليومية الاجتماعية، وأسس عالمهم السياسي المصغر (القبيلة)، المتنافر- حسب رأيه- مع الآخر المتوحش (الباشا

---

45 Michelle Malkin, Saudi Slavery in America, National Review Journal, July 19, 2013. https://goo.gl/f8MiWV

46 محمد سعدون المطوري، الاستشراق الألماني ودوره في الدراسات الشرقية: تاريخ الاستشراق الألماني وملامحه من أسسه المنهجية، مجلة دراسات استشراقية، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، شتاء 2015.

47 المرجع السابق، ص 192.

48 Antonella Cassia, Saudi Arabia in the German-Speaking Imagination: Identity, Space, and Representation, Phd Dissertation, The University of Arizona, 2016. P 43.

العثماني)، أو سكان المدن في بلاد الحجاز أو الشام أو مصر[49].

هذه الصور النمطية المتماهية مع براديغم (شرقنة الشرق) (كما تحدث عنه إدوارد سعيد)، وخلق حالة من التعجب والخوف لدى المتلقي الأوروبي، تشرع بالأساس للأجندات الاستعمارية وهيمنة قياداتها على ثروات المنطقة وتروضه بشكل ممنهج على تقبل انحرافاتهم وتجاوزاتهم ضد مجتمعات يعدونها بالضرورة خارج الفضاء الحضاري الغربي، ومن ثم تبرر هذه الصور الذهنية الاستشراقية للعنف الرمزي والاستعمار الاقتصادي والسياسي والثقافي لدول المنطقة.

تجاوز المستشرق الألماني نيبوهر (Niebuhr) تناقضات أو مفارقات المستشرق (Burckhardt) وسعى لتقديم صور حول المملكة السعودية العربية من منطلقات فهم عميق للدين الإسلامي، واحترام لخصوصيات المجتمع، دون إلزام نفسه بإعادة إنتاج صور الغيرية الأوروبية، وقدم تفسيرات لمسألة تعدد الزوجات بعيداً عن التنميط الكلاسيكي للمستشرقين، ودون سقوط في مقولاتهم المؤسسة للاستقطاب الثنائي بين التخلف/ الرجعية الإسلامية، والحداثة/ التحضر الأوروبي[50]؛ حيث التزم هذا المستشرق بروح النص الديني، وطبيعة العرف الاجتماعي، عند وصفه لحقائق الواقع الفعلي لحضور المرأة السعودية (الحجاز) في تلك الفترة من التاريخ في الفضاء العام، بالإشارة إلى مغالطات الصورة الذهنية لدى الرأي الشعبي والنخبوي الغربي حول (الحريم/ الهوس الجنسي/..) معززاً لتمثلات بديلة وأكثر منطقية حول النساء، مثلما يظهر في قوله التالي: «نساء العربية (السعودية) يتمتعن بنطاق واسع من الحرية، وفي كثير من الأحيان نطاق واسع من النفوذ داخل أسرهن»[51].

وما يجعل كتابات (Niebuhr) مهمة في الفترة الراهنة ليس فقط المنهجية الموضوعية وعمق تحليله لمناحي الحياة الاجتماعية، واهتمامه بتأثير المعطى العقائدي الديني في المجال السياسي، بل أيضاً لمعاصرته لمؤسس المذهب الوهابي (محمد بن عبد الوهاب)، كما دون ذلك في فصل كامل (الدين الجديد في جزء من نجد) من كتابه (Travels Through Arabia and Other Countries in the Middle East) (1792). ومن خلال التعمق فيما يطلق عليه هذا المستشرق (التوحش النبيل) (noble savage)، حيث يربط طريقة عيش البدو وأجواء الصحراء في بلاد الحجاز بالنقاء والصفاء، حيث ينظر إلى الاستشراق والكتابة عن المجتمعات الإسلامية من طرف بعض الغربيين فرصة للتخلص من قيود التمدن، والتمزق المجتمعي، وإرهاصات الثورة الصناعية بالرجوع إلى الطبيعة والتراث والحرية.

تواصلت الكتابات حول المملكة العربية السعودية في دوائر الاستشراق الألماني بمراوحة واضحة بين قيم (العصور الوسطى) والحداثة (الأوروبية)، مع التركيز على خاصيات المجتمع الذكوري بمدن مثل جدة أو الطائف، كما جرى الاهتمام بوصف الأبنية وهندسة المدن (الأماكن المقدسة).

وتعمد الاستشراق الألماني رصد حالة التحول البطيئة والتمزق التدريجي (الحيرة/ إرهاصات) للمجتمع السعودي والمدن بين الماضي (التراث/ الأصالة) والحاضر (الانفتاح على التمدن الأوروبي) الذي تزيد حدته في منتصف القرن العشرين.

يرى بعض المستشرقين حالة المراوحة بين التمدن والبداوة، كما يجري تسميتها في كتابات لوالتر وايس (Walter Weiss) أو هارمان يونغ (Hermann Jung)، في مدن مثل (جدة) التي تعرف تحولات متسارعة نحو العصرنة،

---

49 Ibid.

50 Antonella Cassia, Saudi Arabia in the German-Speaking Imagination: Identity, Space, and Representation, Phd Dissertation, The University of Arizona, 2016. P 43.

51 Ibid. P53.

ولكن سكانها والمباني تمثل المفارقة أو الاستثناء؛ فكثيراً ما توصف تقاليدهم ونمط عيشهم بما قبل-العصرنة (pre-modern) (الملبس/ الهندسة المعمارية/ المأكل..). وعلى نحو مشابه، يواصل المستشرق الألماني ماكس رايش (Max Reisch) التأمل في حالة المفارقة التي تعرفها مدن إحدى أكبر الدول النفطية عالمياً في مزجها (الاستثنائي) بين الحداثة والتراث، ليخرج بخلاصة أن الصحراء الشاسعة للمملكة السعودية تمنعها بالضرورة من إرساء التجربة الكلية للتمدن/ الحداثة أو التشبع بها[52].

ازداد الاهتمام بالترف وبذخ الحياة بالسعودية بعد خمسينيات القرن الماضي، حيث وُصفت في الغالب القصور الملكية وحياتهم من منطلقات فانتازيا الذهنية الاستشراقية، وهناك خاصية ثانية لتَواصل المقارنة بين الحداثة والبداوة داخل النموذج السعودي تتعلق بمناقشة استمرارية المعطى الديني والطابع الاجتماعي المحافظ في الغالب من منظور ثقافي غربي يراوح بين وصم دور الدين في تقييده للحياة العامة[53]، أو تقبله بصفته أحد مكونات الهوية الثقافية السعودية.

لا ينفي هذا الفارق بين الرؤى المنفتحة والمنغلقة للمستشرقين الألمان ترسخ مقولات الهيمنة الأوروبية، وحتى المعتنقون للإسلام منهم لديهم رغبة محمومة في تغيير المجتمعات العربية- السعودية نموذجاً- والدفع بها نحو قيم أو براديغم يعدونها حكراً على الحضارة الغربية، مثل تحرير المرأة، وحقوق الإنسان، والتمدن..إلخ، ومع ذلك نجد أن التمثلات الألمانية للمجتمع السعودي قد عرفت إعادة تشكل وترسخ لمقولات بديلة داخل المتخيل الشعبي الثقافي.

وفي عصر الشبكة المعلوماتية والانفتاح الإعلامي، وما يوفره من فرص ويتيحه من إمكانات للتواصل؛ من المهم التعرض لكتابات المدونات الإلكترونية ونشطاء العالم الافتراضي كعينة لتدارس وتفحص التمثلات الخاصة بالمجتمع السعودي داخل الذهنية الألمانية؛ فالفضاء الافتراضي وشبكات التواصل الاجتماعي تمثل نطاقاً حراً لترسيخ الهوية الثقافية الألمانية-الأوروبية، ليس بالضرورة لمعاداة أو إقصاء الهوية الإسلامية للآخر السعودي، حيث يرى فيها العديد من الملاحظين أنها استطراد لأدب الرحلة زمن الاستشراق الكلاسيكي إلكترونياً (امتداد ضمني للمقولات الكولونيالية وما بعد الكولونيالية).

وتتضمن هذه التمثلات الصور الذهنية التي يشكلها المغتربون الألمان بالسعودية (للعمل بمدينتي جدة والرياض خاصة) حول الدولة المستضيفة، لتصبح في الغالب مكوناً أساسياً للخطاب العام حول المملكة في المتخيل الشعبي الألماني.

وترى الباحثة أنطونيلا كاسيا (Antonella Cassia) التي تعرضت بالتحليل المقارن لجملة من المدونات الإلكترونية[54] «أن المدونات الشخصية للمغتربين الألمان تمثل فضاء افتراضياً، متجاوزاً للحدود القطرية، وخطابياً/ بلاغياً فريداً؛ حيث تتشكل (الغيرية الثقافية) لتمثلات الألمان إزاء المملكة العربية السعودية»[55].

تسلط هذه المدونات الضوء على جوانب عدة من الحياة اليومية للمجتمع السعودي بشكلها العفوي وعن قرب، دون خلفيات سياسية أو أجندات أيديولوجية (في الغالب). ولا تركز هذه المدونات على التسويق للصراع أو الاختلاف الحضاري بين البلدين بقدر ما تهتم بتفسير القيود أو الحدود التي من المهم الالتزام بها عند القدوم إلى المملكة؛ مثل مسألة الاختلاط، وشرب الخمر، والملبس المحتشم.. إلخ. وفي الوقت نفسه تتسم هذه المدونات بحالة إعجاب شبه استشراقي

---

52 Antonella Cassia, Saudi Arabia in the German-Speaking Imagination: Identity, Space, and Representation, Phd Dissertation, The University of Arizona, 2016.

53 Ramadan, Tariq. ToBe a European Muslim: A Study of Islamic Sources in the European Context. Leicester, UK: Islamic Foundation, 1999.

54 مدونات للمحادثة بين الجالية الألمانية بالسعودية والموجودة على الرابط التالي: http://www.expat-blog.com

55 Antonella Cassia, Saudi Arabia in the German-Speaking Imagination: Identity, Space, and Representation, Phd Dissertation, The University of Arizona, 2016.p 144.

بالطبيعة البدوية، وسحر الجغرافيا الصحراوية، والاستمتاع بركوب الجمال، وتهميشٍ كامل للتقدم التقني والحضري، والتنوع الثقافي، والتحولات الاجتماعية التي تعيشها السعودية. ومن الملاحظ أنه ما زالت النظرة الغربية تختزل السعودية في حالة المراوحة (الاستثنائية) بين التراث والتمدن المتسارع (hypermodern) (المطاعم الأجنبية/ البنية التحتية/ المباني/ المراكز التجارية..)، كما أنها ما زالت تنبهر بمظاهر البذخ والترف.

وتتوقف المدونة والمؤلفة (Behringer) عند مسألة حضور المرأة في الفضاء العام، وتتحدث كثيراً عن النفوذ المالي والتمكين الاقتصادي للعديد منهن، رغم العوائق الاجتماعية والقيود الدينية، التي يستبطنَّها في حياتهن اليومية و/أو مستويات التواصل على مواطني الجالية الأجنبية.

لعل أبرز ما تتصف به التمثلات الذهنية لدى المتخيل الألماني حول السعودية ويميزها، التزامها العميق، غالباً، بروح الموضوعية، واحترام أوجه الاختلاف الحضاري والثقافي، كما أنها تتوخى الدقة على مستوى السرد والحياد عند التعرض للنمط المجتمعي المحافظ، أو هيمنة المرجعية الدينية على الحياة اليومية للسعوديين.

3- المتخيل الجمعي الإسباني حول السعودية

اتسم الاستشراق الإسباني خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بالموضوعية، وتفهم الخصوصيات الاجتماعية أو العقائدية لمجتمعات المنطقة العربية؛ خاصة أن الأندلس عرفت عصرها الذهبي مع الحكم الإسلامي، كما يقول المفكر الإسباني (أنطونيو غالا): «سقوط غرناطة حول إسبانيا فقيرة ومنعزلة قروناً، وأصبحت الدول المسيحية التي توالت على حكمها هرمة بعد أن أفلت شمس الحضارة السامية العربية الإسلامية، وانتهى عصر الحكمة والثقافة الرفيعة والذوق والتهذيب»[56].

في ظل هذا الصراع النفسي والتاريخي للمثقف الإسباني مع التراث الإسلامي، تجري المبالغة في اختزال المملكة العربية السعودية في صور مثل الصحراء والجمال والتقاليد البدوية، ذات بعد فانتازي، لتمرير مواقف ثقافية مشوهة للقارئ الإسباني، مثل التأخر المعلوماتي، والبداوة، والأمية، وغياب البنية التحتية الحديثة.. إلخ.

وتتورط الصحافة الإسبانية بتناقضات كبيرة على مستوى الخطاب الخاص بالسعودية، حيث تتحدث أحياناً عن الثقل الاستراتيجي والاقتصادي للمملكة دولياً، في حين تصورها ذات الصحف على أنها بلد (متخلف) و(صحراوي).

وعلى العموم فإن تمثلات الإعلام الإسباني حول المملكة العربية السعودية تسيطر على المتخيل الشعبي وتتحكم في ردود أفعاله، حيث يرسمها غالباً باسم (الفكر الوهابي) المشحون بحمولات بلاغية مثل (الإسلام الأصولي)، (الكراهية للغرب)، (السلفية الجهادية)، (القيود الاجتماعية باسم الدين).. إلخ. وينظر إلى المذهب الوهابي على أساس النقيض الحتمي للمنظومة الفكرية والثقافية الغربية، وتتعمق هذه النظرة التعسفية إلى درجة اعتبار المجتمع السعودي بالأساس مضطلعاً في نشر الفكر التكفيري المشجع على ممارسة الإرهاب، كما جاء في مقالة بتاريخ 28 يوليو/تموز 2015 تحت عنوان (لغز الشرق الأوسط) بصحيفة (El País): «تنتمي هذه الاتجاهات (الإسلامية المتشددة) إلى المملكة العربية السعودية: أولاً، الوهابية تدعو إلى نشر الأصولية وكراهية الآخر. ثانياً، الطابع التاريخي للسلفية الذي يدعو إلى العودة إلى الوراء إلى زمن الصحابة؛ من حيث السلوك والعادات، ولكن الأكثر خطراً يكمن في التهديد الهارب من العصور الوسطى، وأصبح يسمى مع تكنولوجيا القرن الحادي والعشرين تنظيم الدولة الإسلامية أو داعش، التي أصلاً تتأسس

[56] أورنيلا سكر، الاستشراق الإسباني مقدمة لفهم التراث العربي الإسلامي في الأندلس، 12 أغسطس/آب 2017. https://goo.gl/NWqyR1

على الأساس السني المستوحى من التقاليد الوهابية والسلفية الجهادية.. إلخ»[57].

وتهاجم الصحافة الإسبانية (الأغلبية) الفكر الوهابي باتهامات صريحة بتشجيعه على الأعمال الإرهابية، وتقييده لحرية المرأة السعودية، وكانت تنطلق في الغالب من اتهامات أو تخمينات مثل انتماء زعيم تنظيم القاعدة (أسامة بن لادن) إلى السعودية، وهو ما يجعل هذه الأخيرة متورطة في تمويل الحركات الإرهابية والدعاية لها في جميع أنحاء العالم من خلال المراكز الإسلامية والمساجد والجمعيات الخيرية.

وانطلاقاً من الجدال الحاصل حول ظاهرة الإرهاب الدولي، وضلوع العديد من المنتمين إلى الديانة الإسلامية في ضربات 11 سبتمبر، أو التفجيرات المتكررة بأوروبا، تنبثق فكرة مفادها أن الأفراد المكوِّنين لذات المجتمع أو الطائفة الدينية (السنة) بالضرورة تتناقل هذه العقلية الدموية.

وتمتد خلفيات الفهم المباشر للشخصية السعودية داخل الصحافة الإسبانية، التي هي بدورها مكون هام في المتخيل الاجتماعي، إلى ما يطلق عليه بالعلاقة المشبوهة بين (الأيديولوجيا) الوهابية والنظام الحاكم التي يؤكد استمراريتها لعدة قرون، مثلما جاء في مقال بعنوان: (لماذا لا يتغير شيء في المملكة العربية السعودية مع الملك الجديد؟)، بتاريخ 24 يناير/ كانون الثاني 2015 في صحيفة (ABC International)[58].

يفضي نمط الخطاب التشويهي حول هذا التحالف التاريخي بين الديني والسياسي في الدولة السعودية إلى إحداث نوع من الدهشة والخوف لدى الرأي العام الإسباني، خاصة حين التنصيص على ضخامة المنتوج النفطي بصفته داعماً أساسياً لأجندات الإرهاب. ويتأسس هذا الخطاب الصحفي على تضخيم خفي لثنائيات متضادة، مستمدة من الاستشراق الكلاسيكي ومتواصلة مع الاستشراق الجديد، بين العلماني والديني من جهة، والتناقض بين الليبرالية الأوروبية والمنظومة العقائدية والسياسية للمملكة من جهة أخرى. فالمتخيل الإسباني يستحضر طابع الاستشراق الكلاسيكي المشحون بصور الازدراء، والتمثلات الزائفة حول الآخر (العربي المسلم) في ظل تمثله لذاته كعنصر خارج عن مجال التفوق الأوروبي الذي تقوده وتستحوذ عليه بالأساس ألمانيا وبريطانيا.

يؤسس هذا الطابع الطاغي على الخطاب الإعلامي الإسباني بعمق لصورة قاتمة للسعودية في الذهنية الشعبية بتعمد واضح لتكرار ذات الأفكار الواصمة للفكر الوهابي بالعنف، والتورط المباشر في الأعمال الإرهابية، وانتهاكات حقوق الإنسان، والتضييق على الحريات الشخصية، ورفض الآخر (الغربي).

باختصار، ترى هذه الصحف الإسبانية أن التشدد العقائدي للفكر الوهابي قد أساء لسمعة المملكة العربية السعودية في العالم الغربي، ولكنها بمفارقة فاضحة تعبر عن حاجة إسبانيا الملحة لاستقطاب الاستثمارات السعودية.

السعودية شريك فاعل للعالم الغربي

عرفت العلاقات العربية الغربية بعد ضربات الحادي عشر من سبتمبر حالة من الفوضى السياسية والثقافية، ومشاعر الكراهية المتبادلة، خاصة بعد سقوط بغداد، وانتشار ممارسات الإسلاموفوبيا، بداية بالملاحقات والقيود الأمنية في بلدان المهجر، مروراً باحتلال العراق وأفغانستان والضربات العسكرية باليمن وليبيا تحت اسم الحرب الدولية على الإرهاب، وصولاً إلى إعادة إنتاج خطاب صدام الحضارات إعلامياً وسياسياً وثقافياً.

---

57 Jorge Dezcallar, El rompecabezas de Oriente Próximo, Opinion, El PAIS (Journal), 28 July 2015, https://goo.gl/FpABje

58 francisco de andrés, ¿Por qué nada cambiará en Arabia Saudí con el nuevo Rey?, ABC International Journal, 24 January 2015. https://goo.gl/fN6gei

وعلى الرغم من انتشار موجة التوجس المتبادل فإن عدداً لا يحصى من المنتديات والمؤتمرات، إلى جانب العديد من المبادرات الدبلوماسية، عُقدت بهدف تعزيز الحوار بين الحضارات ومناقشة المسائل الخلافية (الجهاد/ الحجاب/ الخطاب الاستشراقي..)، وتوضيح أسسها المعرفية والدينية، وتدارس أشكال تكييفها مع مقومات عصر العولمة.

ومنذ البداية كان هدف هذه الملتقيات التصدي للنزعة الدموية لصدام الحضارات المرتبط أساساً بمشروع سياسي ثقافي ذي طابع استعماري، من جهة أولى، ومعالجة التوظيف الأيديولوجي لمفاهيم الصراع والاختلاف بالتركيز على الرسالة الإنسانية والكونية للإسلام وأوجه التشابه بين مختلف الأديان، من جهة أخرى. ومع ذلك لم يستطع النزوع المؤسساتي للخطاب الاستشراقي استيعاب الأحكام الفقهية والعقائدية للتشريع الإسلامي التي يرى معظم المفكرين والسياسيين الغربيين، إلى جانب الرأي العام، عدم توافقها مع الطروحات الحداثوية. واتضح هذا الأمر جلياً من خلال الفشل الضمني للحوار بين العالم العربي الإسلامي والعالم الغربي، خاصة بعد استفراد الولايات المتحدة الأمريكية بالقيادة الدولية في فترة ما بعد الحرب الباردة.

ويفسر المفكر الفرنسي والمختص بالعلاقات الدولية روجر جارودي (Roger Garaudy) فشل مشروع الحوار بين الحضارات بهشاشة الأرضية المؤسسة للحوار بين الثقافات، في ظل تزايد مستويات الهيمنة العسكرية والاقتصادية والثقافية والسياسية الأمريكية على دول العالم الثالث[59].

وبالرغم من الاكتساح المتزايد للقيم الغربية لمجتمعات المنطقة العربية، وحالة الارتباط الوثيق بالتوجهات السياسية والاستراتيجية لدول النفوذ الأوروبية والأمريكية، ما زالت مسألة الاختلاف الحضاري، ووهم الفوقية الغربية بالتضاد الحتمي مع التخلف الإسلامي، تحدد الملامح العدائية للمتخيل الثقافي للغرب حول المسلمين. ولذا يفسر هذا المفكر الإنتاج المتواصل للصور النمطية، وتصدع العلاقة بين الطرفين، بترسخ الرواسب الثقافية ذات الخلفية الكولونيالية لدى الجانب الغربي في قوله: «يجب علينا (الغرب) أن نقضي على الهيمنة الاقتصادية، وأن نمحو التسلط الثقافي. يجب علينا أن نحارب أعداء الثقافات، ديناصورات هوليوود ووسائلهم الترفيهية، وكل تصوراتهم / تمثلاتهم اللاأخلاقية والمادية»[60].

تتمثل أهم معوقات التوافق الغربي–العربي، نسبياً، في الاعتقاد السائد بأن العولمة الثقافية كمشروع ترسخه وتؤمن به القوى المتنفذة في العالم الغربي، غايته بالأساس طمس الخصوصيات المميزة للثقافات المحلية لدول العالم الثالث؛ فالغزو الثقافي الغربي للعالم الإسلامي بواسطة سياسات ناعمة توظف منظمات المجتمع المدني الدولي والإعلام والسياسات الوطنية لإعادة إنتاج مقولات الاستشراق من جديد؛ يعكس لدى العديد من المفكرين والمحللين قصوراً لدى الكثير من النخب العربية التي انغمست في العداء المبطن والعلني للثقافة الإسلامية من جهة، أو في تقديسها وإقصائها إلى درجة تكفير الثقافة الغربية دون تقديم تصورات عملية لانخراط المجتمع العربي في دوائر العصرنة (modernization) والتقدم الحضاري (التعليم/ الفن/ الثقافة/ العلوم/..)، وتجنب السقوط في الدوغمائية أو التهافت، من جهة أخرى.

وفي إطار هذه الموازنة بين المحلي والعولمة يرى الكاتب محمد الشيباني، في كتابه (the Threat of Globalization to Arab Islamic Culture)، أن التقدم التكنولوجي، والترابط الاقتصادي والنقدي بين الدول المتقدمة والعالم

59 Mohamed El-Shibiny, The threat of Globalization to Arab Islamic Culture: The Dynamics of World Peace, Dorrance Publishing Co, 2005.

60 Mohamed El-Shibiny, The threat of Globalization to Arab Islamic Culture: The Dynamics of World Peace, Dorrance Publishing Co, 2005, p 44.

الثالث، إلى جانب النزعة نحو الديمقراطية والليبرالية، لا يشرع لهيمنةِ أو فوقيةِ ثقافةٍ ما، بل يجب أن يؤسس لتقاليد الانفتاح والتواصل بين الثقافات من أجل دعم القيم الديمقراطية وحقوق الإنسان في كل الدول[61].

الحراك السياسي والاجتماعي في السعودية والترويج لصورة جديدة

تزايد الجدل الإعلامي الغربي حول شخصية ولي العهد السعودي (محمد بن سلمان) في الفترة الأخيرة، وانتشارُ صوره وأخباره في أكبر الصحف الغربية، وتحليل سياساته في مراكز الدراسات؛ هو خطوة متقدمة لإعادة إنتاج صورة المملكة العربية السعودية وقياداتها السياسية في الذهنية الغربية.

والجدير بالذكر هنا أن الصراع بين التراث والحداثة (النمط الليبرالي) موجود بصورة واضحة في الكتابات أو السجالات الغربية حول المشاريع الإصلاحية السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية لولي العهد؛ فطرق ووسائل التمثيل الغربي لشخصية من آل سعود تتقلد أهم المناصب القيادية الحساسة، تقطع أغلبها مع الرمزيات والصور النمطية (الاستشراقية)، وتنتقل بشكل واضح نحو استنباط أو إنشاء رمزيات أكثر عقلانية حول رجل دولة استطاع أن يؤسس لرؤية تقدمية باعتباره «القائد الحازم في قراراته والقادر على إنشاء وطنية جديدة»[62].

يتناقض كما أنه يتقاطع الفهم الذي تقدمه الوسائل الإعلامية الغربية فيما بينها بناء على أجندات دولها في منطقة الشرق الأوسط، حيث تختلط الخيارات النفعية البراغماتية بأشكال تصميم الصورة وأبعاد تأويلها داخل الذهنيات الغربية المتضادة، لذلك تتأرجح التصورات الثقافية للإعلام الغربي حول صناع القرار السعوديين بين التشديد على إرجاع المتلقي الغربي نحو رمزيات الاستشراق الكلاسيكي (شهريار/ البذخ..)، من خلال التركيز على أخبار مثل شراء قصر لويس 12 بفرنسا، أو لوحة (المسيح)، بملايين الدولارات، وأخرى تركز على عمق سياسة الإصلاح والتوجهات الكبرى للسعودية على مستوى التحالفات والعداء السياسي.

ويظهر هذا التوجه الأخير جلياً في صحيفتي (the Guardian) و(New York Times) حيث تحرصان على تقديم صورة أكثر سطوعاً للقيادة السعودية الجديدة، وتتحدث في أغلب مقالاتها عن سياسات الإصلاح، مع الإبقاء على منظومة الحكم ودعائمه. فالطريقة التي تتجسد بها شخصية ولي العهد في هذه الصحف الكبرى المؤثرة في الرأي العام والنخب الغربية والعربية تتماهى في الغالب مع صفات مثل (المصلح الشجاع) (Bold Reformer) في افتتاحية لـ(New York Times) بتاريخ 23/6/2017، وتشيد (the Guardian) في إحدى افتتاحياتها بالزعامة والكاريزما التي يتمتع بها ولي العهد، وهو ما جعلها تصفه بالبطل الشعبي؛ لقدرته على الإطاحة بأكبر رؤوس الفساد في الدولة السعودية.

وكان الخطاب حول الدين والإصلاح الاجتماعي المحرك الأساسي للصحافة الغربية، حيث حرصت مثلاً صحيفة (Guardian) على تحليل الجملة الشهيرة لولي العهد أن «السعودية لم تكن طيلة 30 سنة الماضية في حالتها العادية، لذلك من المهم إعادة المملكة إلى الإسلام الوسطي»، بتفكيك النفوذ الخفي للنخبة المتشددة دينياً.

في ظل هذه المتغيرات داخل السياسة السعودية، وبداية فك الارتباط مع بعض الاجتهادات الدينية المكبلة للحياة الاجتماعية والاقتصادية، تتسابق وسائل الإعلام الغربية في رصد ملامح الحراك النسوي والشبابي المدعوم سياسياً

---

61 Mohamed El-Shibiny, The threat of Globalization to Arab Islamic Culture: The Dynamics of World Peace, Dorrance Publishing Co, 2005, p 44.

62 Kristin Smith Diwan, New Generation Royals and Succession Dynamics in the Gulf States, The Arab Gulf States Institute in Washington, March 21, 2017, p 11.

بقرارات وتشريعات أقرها الديوان الملكي في ٢٠١٧.

وفي هذا السياق تختلف التمثلات الثقافية بين تصورات سطحية ومبسطة حول اضطهاد الإسلام للمرأة، وعزوف مجتمعاته عن الثقافة الليبرالية والممارسة الديمقراطية؛ حيث تجري تعبئة الرأي العام الغربي بمصطلحات ومقاربات تستنهض القوالب العدائية للإسلام، في حين تجاوزت أخرى نوعاً ما التناول النمطي لقضايا المرأة المسلمة، واعتنت بتفكيك الصور المغلوطة والتعميمات المتراكمة حول المرأة السعودية، لتحل محلها نماذج من الواقع الحي لنساء قياديات ومتعلمات ومنخرطات في تطوير الترسانة الحقوقية للمجتمع ككل[63].

ومن المهم أن تتناول القيادة السعودية- كما بدأ يحصل فعلياً منذ صيف 2017- إشكالية إعادة قراءة وتقديم الإسلام بوصفه أسلوب حياة وتفكير (للأنا) الإسلامي و(الآخر) غير الإسلامي، ليس على أسس المقارنة بالنماذج الغربية، بل على أساس مقاربة نقدية وتفكيكية تنبع من عمق الإسلام المعتدل الوسطي، وتُشرع لقراءة جديدة ولتأويل متجاوز للبعد العقائدي للإسلام ومتلائم مع عقلية الحريات والديمقراطية التي تمثل في الغالب أهم مقومات المجتمعات الغربية والقيم الكونية.

تطور الوعي لدى المجتمعات الغربية

بدأت تتجلى سمات التغير في الوعي الثقافي الغربي بالسعودية في الأدبيات الأخيرة، ما بعد 2001، وتزايدت في الفترة الراهنة بالتوازي مع الدينامية والحيوية التي تعرفها السياسية الداخلية والخارجية للمملكة، بالإضافة إلى التحولات المهمة في الحياة المجتمعية للفرد والمجتمع، توازياً مع توجه عام نحو إعطاء هامش أكبر للحريات الاجتماعية (سياقة المرأة/ الترفيه..).

يفترض هذا التصور أن صناع القرار في الخارجية الأمريكية مثلاً أصبحوا أكثر براغماتية وانفتاحاً على المجتمعات الإسلامية وقياداتها؛ من خلال العمل الاستخباراتي، والدراسات الأكاديمية، والدبلوماسية، والتدخلات العسكرية، خاصة في فترة ما بعد ضربات 11 سبتمبر 2001[64]؛ فقد أصبح المعطى الديني (تصنيفاته: معتدل- متشدد- صوفي..) داخل التركيبة السياسية والاجتماعية للدول العربية من أولويات الفاعلين في صنع القرار في الخارجية الأمريكية.

في إطار هذا التصور الجديد للسياسة الدولية، وضح الدارسون للعلاقات الدولية أن تورط (القاعدة) في الضربات الإرهابية في ١١ سبتمبر جعل التوظيف السياسي للمعطى الديني بصفته سبباً للصراع الحضاري والاختلاف الثقافي بين الغرب والعرب، يظهر واضحاً وبمنهجية مدروسة. والديناميات المحركة للتدين الإسلامي والقوى الفاعلة والمؤثرة في الحركات الإسلاموية، التي ازداد عددها ونفوذها، وضعت السياسة الخارجية للولايات المتحدة في مواقف متقلبة وغياب الاستمرارية على مستوى الاستراتيجيات والخطاب السياسي، بمعنى أن تحكمها السياسي في الرأي العام الأمريكي يتغير ويتفاعل بشكل براغماتي وفق التوازنات الاقتصادية والسياسية والأمنية في البيئة الدولية[65]. إذ تتفرد السياسة الأمريكية بتوظيفها لروح العدائية ضد الإسلام، خاصة في السنوات الأولى لما بعد 2001، وتضمينها في خطابها السياسي والإعلامي كقوة ضغط لتحقيق مطامعها وأجنداتها داخل المنطقة العربية، ولتشريع سياساتها الخارجية لدى الرأي العام، خاصة منذ

63 Merskin, Debra, The Construction of Arabs as Enemies: Post-September 11 Discourse of George W. Bush. Mass Communication and Society, 7 (2), 157 -175. 2004.

64 Jackson, R. and McDonald, M. Constructivism, US foreign policy and the war onterrorism, In: I. Parmar, L.B. Miller and M. Ledwidge (eds.) New Directions in US ForeignPolicy. London: Routledge, pp. 18–31, 2009.

65 Elizabeth Shakman Hurd, The Politics of Secularism in International Relations, Princeton University Press, 2008.

بداية الحرب على الإرهاب.

بخلاف مواقف النخبة الغربية (العلمانية) أو ذات المرجعية الاستشراقية، ينغمس أغلب الكتاب الغربيين المسلمين في وصف الجانب الروحاني لمناسك الحج، بتركيز كبير على آليات الخطاب الانفعالي (وصف لرحلة الحج/ الكرامات/ الغيبيات..)، ولكن هذه الكتابات لم تتمكن من تجاوز تراكمات الخطاب الحداثي الغربي، الذي يبني مقولاته على أساس التصادم والنظرة الانتقادية لواقع المجتمعات العربية، حيث تؤكد المفكرة مارسيا هابرماس (Marcia Habermansen) أنهم مسكونون بالمواقف الاستشراقية ونظرة (شبه) استعمارية للسعودية[66].

تتعامل الكتابات الغربية للرحالة أو الدارسين المسلمين مع النظام السعودي بشكل مشابه لدولة القرن الثامن عشر والتاسع عشر، كما تتجاهل الانتقالية الصامتة والحراك داخل مجتمعها، لذلك تعد المملكة العربية السعودية معزولة أكاديمياً داخل المشاريع البحثية الغربية (الأوروبية خاصة)، بحيث إنها بقيت فضاء شبه مجهول بالنسبة إلى الرحالة والمهتمين بالدراسات الاجتماعية والثقافية، رغم الاهتمام القديم والمتواصل بمجالها الاقتصادي. وقد زادت كتابات الغربيين (المسلمين) من اختزال السعودية في بوتقة روحانية الأماكن المقدسة (مكة/ المدينة المنورة).

وعلى الرغم من أن مجتمعها وثقافتها ما زالت أكثر إغراء للدراسات الشرق أوسطية في الجامعات الغربية أو لكتابات الرحالة والباحثين، فإن قوة التغيرات السياسية والدبلوماسية، والنفوذ الاقتصادي، وتموقعها الاستراتيجي، يدفع بهم لدراستها بصفتها دولة ذات ثقل إقليمي ودولي من جهة، ويفرض عليهم استخدام أسلوب نفعي براغماتي للمحافظة على مصالح دولهم أو دعمها، من جهة أخرى.

يسير المتخيل الثقافي الغربي حول المجتمع السعودي غالباً بمحاذاة المواقف السياسية الدبلوماسية للنخب الغربية من المملكة العربية السعودية، وهو ما يؤكد أن صناعة الرأي العام تخضع للأجندات والمصالح العليا للدولة ذاتها لا للواقع المعاش.

تتأثر المتخيلات الغربية حول العالم العربي أو المجتمع السعودي بحق بما يروج له العديد من الأطراف النخبوية (الباحثون/ السياسيون/ الإعلام) في سياقات تشكيلها لمفهوم (الآخر المسلم)، بمعنى أن اختزال الثقافة الشرق أوسطية مع الدين الإسلامي- الذي يرون أن تعاليمه السبب الرئيسي في غياب الديمقراطية وانتشار ظاهرة الإرهاب- يجعل هذه المجتمعات خارج نطاق الحداثة الغربية.

وتُسلم فكرة التنافر الحتمي للإسلام مع مبادئ الديمقراطية بتغلغل التعصب والعنف في الشخصية العربية، وبترسخ الاستبداد في النظم السياسية، لشدة التصاقها بالمقولات الدينية في زمن ما بعد الحداثة، ولكن من الضروري القول إن باحثين آخرين في دراسات الشرق الأوسط، مثل (Lisa Anderson) و(John Esposito)) يرون أن الدين الإسلامي ذو دينامية داخلية، وقادر على استيعاب تغيرات التطور التاريخي مثل الديانات الأخرى، وهو ما يدحض الخرافات الاستشراقية والآراء المسبقة حول المنطقة العربية[67].

لا يمكن التأكيد أن الاهتمام الغربي بالسعودية يندرج ضمن مشروع فكري متكامل، ليس فقط بسبب عدم خضوعها لإحدى القوى الاستعمارية الغربية كما حصل مع باقي دول المنطقة العربية، بل أيضاً لهيمنة الهوية الدينية السلفية بصفتها جدار صد للمحافظة على خصوصية الذات الجماعية الإسلامية، وعدم تفعيلها مطولاً لقطاع السياحة، ومن

66 Hermansen, M. Roads To Mecca: Conversion Narratives of European and Euro-American Muslims.The Muslim World 89.1, pp. 56-89,1999.

67 Esposito. John L,Sonn Tamara & Voll John O 'Democracy after the Arab Spring', Oxford University Press, 2016.

ثم فإن المملكة العربية السعودية همشت سياسات الانفتاح السياحي على الآخر (الأجنبي)، وقصرت تأشيرات الدخول على الحجاج المسلمين أو العمالة الأجنبية فقط، بمعنى أن إمكانيات تعرُّف الإرث الثقافي أو الدراسة اللصيقة لمقومات المجتمع، وأشكال التجانس أو التنافر داخله، لا تتبلور بسهولة؛ لتَعالي الجانب السعودي عن كل أشكال التبعية الفكرية أو الأيديولوجية التي ترسخها أغلب الأدبيات الغربية حول المنطقة العربية، وأيضاً التركيز المبالغ فيه لدى الجانب الغربي على تطور القطاع النفطي والسياسات الاقتصادية للمملكة من جهة، والإصرار المنهج على إنشاء صور نمطية ذات بعد فانتازي تجاري لدى الرأي العام الغربي بمفاهيمها الأيديولوجية الفوقية؛ غير متجاوزة الدائرة المغلقة والمعتادة للتعسف الديني والترف والبداوة، من جهة أخرى.

يبدو أن الانفتاح الكبير للقيادات السعودية على العالم الغربي، وتوخيها لخطط إصلاح متناسقة بشكل براغماتي مع روح العصر، أسهم في دحض بعض التصورات النمطية حول المجتمع السعودي وإخراجه من دائرة المقاربات التقليدية الخاصة بتقاليد البدو، واضطهاد المرأة، والصحراء، وموسم الحج، بالإضافة إلى تخيلات حول الثراء الفاحش.

الخلاصة

لم تتطرق هذه الدراسة إلى كل الجوانب الخاصة بصورة المجتمع السعودي في المتخيل الثقافي الغربي، ولكنها سعت إلى تفكيك الصور النمطية المألوفة، وتتبع منطلقاتها الاستشراقية، وأشكال تغيرها التدريجي في الوقت الراهن. ويجدر بالذكر أن المجتمع السعودي ليس استثناء في سياقات الاستشراق الكلاسيكي أو لدى الرأي العام الغربي، بل إنه يتعرض تقريباً لذات الأجندات الغربية المرسخة لدونية العالم العربي وفوقية العالم الغربي، بمقولات تراوح بين البربرية (القرن السابع عشر)، و(البدائية) (القرن التاسع عشر) وكذلك (التخلف) (القرن العشرون)، أما حالياً فـ(غياب الديمقراطية) والتورط في الإرهاب (القرن الحادي والعشرون).

وقد بدأت هذه التصورات النمطية الزائفة تتبدد تدريجياً، ولكن ببطء، نتيجة للانفتاح المتبادل وتنامي الوعي لدى المتلقي الغربي بسياسات التلاعب والتخويف التي تعتمدها بعض النخب السياسية والإعلامية، وكذلك الأكاديمية، لتبرير مقارباتها العنصرية (ضد المهاجرين..) أو التوسعية (اقتصادياً/ عسكرياً..).

المراجع

- إدوارد سعيد، الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة محمد عناني، دار البنجوين العالمية، 2008.
- أورنيلا سكر، الاستشراق الإسباني مقدمة لفهم التراث العربي الإسلامي في الأندلس، 12 أغسطس/آب 2017. https://goo.gl/NWqyR1
- بول آرتس وكارولين رولانتس، العربية السعودية مملكة في مواجهة الخطر، ترجمة ابتسام الخضرا، مركز دراسات الوحدة العربية، يونيو/حزيران 2016.
- شادي خليفة، (واشنطن بوست): أزمة قطر.. الخلاف حول (الدين) وليس إيران، الخليج الجديد، 29 يونيو/ حزيران 2017. https://goo.gl/5JDter
- فاضل الربيعي، ما بعد الاستشراق: الغزو الأمريكي للعراق وعودة الكولونياليات البيضاء، مركز دراسات الوحدة العربية، فبراير/شباط 2007.
- محمد سعدون المطوري، الاستشراق الألماني ودوره في الدراسات الشرقية: تاريخ الاستشراق الألماني وملامحه من أسسه المنهجية، مجلة دراسات استشراقية، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، شتاء 2015.
- يكسي فاسيلييف، تاريخ العربية السعودية: من القرن الثامن عشر وحتى نهاية القرن العشرين، ترجمة شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة الرابعة، 2013.
- Abdulkader H. Sinno, Muslims in Western Politics, Indiana University Press, 2009.
- Al Arabiya English,US annual report: Saudi key member in fight against terrorism, 20 July 2017. https://goo.gl/AmJ4Ke
- Antonella Cassia, Saudi Arabia in the German-Speaking Imagination: Identity, Space, and Representation, Phd Dissertation, The University of Arizona, 2016.
- BEN FLANAGAN, Trump visit boosts US public opinion Zbout Saudi Arabia, Arab News, 27 May 2017. https://goo.gl/tydhqf
- Elizabeth Shakman Hurd, The Politics of Secularism in InternationalRelations, Princeton University Press, 2008.
- Esposito.John L,Sonn Tamara & Voll John O (Democracy after the Arab Spring', Oxford University Press, 2016.
- francisco de andrés, ¿Por qué nada cambiar□ en Arabia Saud□ con el nuevo Rey?, ABC International Journal, 24 January 2015. https://goo.gl/fN6gei
- Hartmann Laura, Saudi Arabia as a Regional Actor: Threat Perception and Balancing at Home and Abroad, States and Societies in the Gulf Monarchies, the Kuwait Program at Sciences Po, Spring 2016. https://goo.gl/UgeA33
- Helene Dieck,The Influence of Public Opinion on Post-Cold War U.S. Military

Interventions, Palgrave Macmillan, 2015.

- Hermansen, M. Roads To Mecca: Conversion Narratives of European and Euro-American Muslims.The Muslim World, 1999.
- J.E. Peterson, Saudi Arabia and the Illusion of Security, The International Institute for Strategic Studies,Routledge, 2002.
- Jackson, R. and McDonald, M. Constructivism, US foreign policy and the "war onterrorism. In: I. Parmar, L.B. Miller and M. Ledwidge (eds.) New Directions in US ForeignPolicy. London: Routledge, 2009.
- Jorge Dezcallar, El rompecabezas de Oriente Pr□ximo, Opinion, El PAIS (Journal), 28 July 2015. https://goo.gl/FpABje
- Josie Ensor, Muslim Leaders call for Sunni and Shia to unite against Islamist terror after Prophet's Mosque bombing in Saudi Arabia, 5 July 2016. https://goo.gl/BhA2NJ
- Kamel Daoud, If Saudi Arabia Reforms, What Happens to Islamists Elsewhere? The New YorkTimes, 16 Novemeber 2017. https://goo.gl/fJm4d7
- Kristin Smith Diwan, New Generation Royals and Succession Dynamics in the Gulf States, The Arab Gulf States Institute in Washington, March 21, 2017.
- Maryam Khalid, Gender, Orientalism, and the (War on Terror): Representation, Discourse, and Intervention in Global Politics, Routledge, 2017.
- Matthew J. Morgan,The Impact of 9/11 on Religion and Philosophy: The Day that Changed Everything?, Palgrave Macmillan, 2009.
- May Darwich. The Ontological (In) security of Similarity :Wahhabism versus Islamism in Saudi Foreign Policy, Institute of Middle East Studies, GIGA German Institute of Global and Area Studies, December 2014.
- Merskin, Debra,The Construction of Arabs as Enemies: Post-September 11 Discourse of George W. Bush. Mass Communication and Society, 2004.
- Michelle Aguayo, Representation of Muslim Bodies in the Kingdom : Deconstructing Discourses in Hollywood, Global Media Journal (Canadian Edition), V 2, Issue 2, 2009.
- Mohamed El-Shibiny, The threat of Globalization to Arab Islamic Culture: The Dynamics of World Peace, Dorrance Publishing Co, 2005.
- Peter Salisbury, It's Qatar V Saudi Arabia. But the West can't afford to pick a side, Middle East and North Africa Opinion, The Guardian, 6 June 2017. https://goo.

gl/8RWGYQ

- Rachel Bronson,Thicker Than Oil: America's Uneasy Partnership with Saudi Arabia, Oxford University, 2006.
- Ramadan, Tariq. ToBe a European Muslim: A Study of Islamic Sources in the European Context. Leicester, UK: Islamic Foundation, 1999.
- Richard Jackson,Writing the War on Terrorism: Language, Politics and Counter-terrorism, Manchester University Press, 2005.
- Robert Leiken, Europe's Angry Muslims: The Revolt of The Second Generation, Oxford University Press, 2012.
- Shaheen, Jack, Real bad Arabs. New York: Olive Branch Press, 2001.
- TIME Magazine. "TheKingComesWesT", 28 January 1957, vol. LXIX, N 4.http://www.time.com
- Tusted, Dag. Neo-Orientalism and the New Barbarism thesis: Aspects of Symbolic Violence in The Middle East.Third World Quarterly, vol. 24, n°4, 2003. http://www.jstor.org

مركز الفكـــر الاستراتيجي للدراسات

Strategic Fiker Center for Studies

مركز مستقل غير ربحي، يُعِدّ الأبحاث العلمية والمستقبلية، ويساهم في صناعة الوعي وتعزيزه وإشاعته من خلال إقامة الفعاليات والندوات ونشرها عبر تكنولوجيا الاتصال، إسهاماً منه في صناعة الوعي وتعزيزه وإثراء التفكير المبني على منهج علمي سليم

الرسالة

المساهمة في رفع مستوى الوعي الفكري، وتنمية التفكير الاستراتيجي في المجتمعات العربية

الأهداف

- الإسهام في نشر الوعي الثقافي.
- قياس الرأي العام إقليمياً ودولياً تجاه قضايا محددة.
- التأصيل العلمي للقضايا السياسية المستجدة.
- مواكبة المتغيرات العالمية والعربية، من خلال إعداد الأبحاث وتقديم الاستشارات.

الوسائل

- إعداد الدراسات والأبحاث والاستشارات والتقارير وفق منهجية علمية.
- التواصل والتنسيق مع المراكز والمؤسسات البحثية العربية والعالمية.
- تناول قضايا التيارات الفكرية المتنوعة بما يؤصل لضروريات التعايش السلمي، والمشاركة الفاعلة.
- إقامة المؤتمرات والندوات الفكرية وحلقات النقاش.
- رعاية الشباب الباحثين المتميزين.

مجالات العمل

تتنوع مجالات العمل في المركز وتشمل ما يلي:

1. الأبحاث والدراسات:

حيث يقوم المركز على إعداد الدراسات والأبحاث وفق المنهجية العلمية في مجالات تخصص المركز، وهي:

- الدراسات السياسية.
- الدراسات المتخصصة في التيارات الإسلامية والفكرية.
- الدراسات الحضارية والتنموية.
- دراسات الفكر الإسلامي.

2. الاستشارات وقياس الرأي:

يسعى المركز لتقديم الاستشارات والحلول في مجالات اهتمام المركز للجهات الرسمية والأهلية، وذلك من خلال قياس الرأي العام تجاه القضايا الفكرية والأحداث السياسية والاجتماعية، بالتعاون مع كادر علمي مُحترف ومُتعدِّد المهارات.

3. النشر:

يسهم المركز في نشر الدراسات والأبحاث عبر وسائل النشر المتنوعة.

مركز الفكـــر الاستراتيجي للدراسات
Strategic Fiker Center for Studies

fikercenter
+90 535 320 46 03
+90 212 70 77 79
info@fikercenter.com
publish@fikercenter.com